الحنين إلى بحري

محمد جبريل

الحنين إلى بحري

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

الحنين إلى بحري

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٤٠٤ ٥

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

بحري ...	٩
الحنين إلى بحري	٢١
يا أولياء الله ... مدد!	٤٧
ترام السكة الجديدة	٥٧
أودة القعاد	٦٣
رباعية بحري	٦٩
الموروث الشعبي في كتاباتي الروائية	٨٧
بانت سعاد	٩٥
غواية الإسكندر وتسونامي الدلتا	١١١

يعيش — بمعنًى حقيقي — من يُدرك قيمة المكان.

جاستون باشلار

بحري ...

شبه جزيرة سكندرية

أذكر خريطة لشوارع الإسكندرية، وضعها أبي وسط جدار الصالة، تعلوها ساعة الحائط البندولية. يحدُّها من جانبَين الميناءان الشرقي والغربي، وتمتدُّ فيها الشوارع والمربعات والمستطيلات، وتتقاطع. التغيُّر — في ظني — شهدته الأحياء خارج بحري. مساحة بحري المحددة، والمحدودة، احتفظت له بطبيعته الجغرافية، غالبية الشوارع والبنايات والميادين على حالها، التغيُّرات المُهمة قليلة — كما في ميدان أبو العباس مثلًا — لكن القسمات الأساسية للحي لم تتبدل، البحر والكورنيش والجوامع والحدائق والميادين والساحات والشوارع والحواري والأزقة وغيرها، ظلَّت في مواضعها تحتفظ للحي بجغرافيته، وتستعيد ذاكرته، وإن تغيظني بنايات النفوذ والفئات المُرفهة، تفصل بين البحر والمدينة. تقصر التطلُّع إلى الأفق على أهل الحظوة، وغالبيتهم — تصور! — من الزوَّار والوافِدين، وتشكل حائطًا في وجه أبناء المدينة.

الإسكندرية ...

لا أعرف ماذا كانت تعني هذه الكلمة للورنس داريل ولا فوستر ولا كفافيس، ولا لِسواهم من الشعراء والروائيين والفنانين الأجانب الذين عبَّروا عن سِني حياتهم في الإسكندرية. أثق أن مشاعرهم لم تكن حميمةً ولا أخوية. كانوا مجرد أعين راصدة، تنقل المُغاير والمدهش والمُثير، وإن تخلَّل كتاباتهم بعض المواقف الشخصية.

الفنان السكندري، ابن المدينة، أو الوطني الذي انتقل إلى الإسكندرية من مدينته القريبة، والبعيدة، لا بد أن تختلف مشاعره تمامًا. هنا وطنه.

الإسكندرية تسكنني بذكرياتٍ لا تغيب. هي جزءٌ من تكويني، من حصيلتي المعرفية وعاداتي وسلوكيات حياتي.

الإسكندرية درة مدن العالم …

التسمية ليست من عندي، لكنها التسمية التي حرص عليها معظم المؤرِّخين منذ دخلَتْ جيوش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية. يصِفها البعض بأنها أوروبية النشأة، عربية اللسان، بحرية الموقع، على أطراف الصحراء، ومدخل لأفريقيا …

ثمة الكثير من المدن التي تُسمى الإسكندرية، لكن إسكندرية مصر تظلُّ هي المدينة الأم، أولى المدن التي أمر الإسكندر المقدوني بإنشائها، وبأن يُطلَق عليها اسمه، سواء كانت المدن التالية من عندياته، أم مُحاكاة من أبناء العصور التالية لاسم المدينة الأم. أُنشئت المدينة لتكون عاصمةً لمصر، واستمرَّت عاصمة للبلاد حوالي ألف سنة.

وإذا كانت المدن — كطبيعة الأمور — تنمو بالتدريج، تكتسب ملامحها الأساسية بالحذف والإضافة والتبديل والتعديل، فإن الملمح الأهم في مدينة الإسكندرية قد ظهر واضحًا منذ بداية إنشائها. وكما يقول أميانوس ماركيلنوس (القرن الرابع الميلادي) فإن الإسكندرية لم تستكمِل زينتها تدريجيًّا مثل غيرِها من المدن، بل ازَّيَّنت — منذ إنشائها الأول — بالطرق الفسيحة. وأسهم موقع الإسكندرية في تعاظُم دورها الديني، فقد كانت مَعبرًا يربط بين المشرق العربي والمغرب العربي. يفد الساعون إلى الحج على ركائبهم، أو على الأقدام، يُقيمون في المدينة فترات، تطول أو تقصر، وربما اختاروا الإقامة فيها إلى نهاية العمر. ذلك ما فعله قطب المدينة وسلطانها المُرسي أبو العباس، وذلك ما فعله — فنيًّا — شيخٌ قدم من المغرب، وأقام في الإسكندرية، ووجد الناس في أقواله وتصرفاته ما يدعوهم إلى التتلمُذ على يدَيه.

صارت الفسطاط، ثم القاهرة — فيما بعد — هي العاصمة الأولى لمصر، لكن الإسكندرية ظلَّت هي العاصمة الثقافية للبلاد، بل إنها فاقت القاهرة في المنزلة الدينية، منزلة الفسطاط والقاهرة، نظرًا — كما يقول أصحاب الرأي — «لخصوصيتها كرباطٍ وثغر، يَحمي مصر والمشرق العربي بأسره من العدوان».

الإسكندرية ليست مدينةً واحدة. إنها عدة مدن على المُستويات التاريخية والمكانية والبشرية. إنها — تاريخيًّا — مدينة فوق مدينة. إذا نقَّبتَ في أي موضع من أرضها، فستجد

أثرًا فرعونيًّا أو بطلميًّا أو قبطيًّا أو إسلاميًّا. وهي — مكانيًّا — تتمتع بكل مقومات المدينة الكوزموباليتينية، باحتضان المتوسط لها، وانتماء عمارتها إلى الحقَب التاريخية التي عاشتها، واتِّسامها بالقِيَم والعادات والتقاليد التي تعبر عن توالي تلك الحقب. وهي — بشريًّا — تحتوي مواطنيها مِمَّن قد تمتدُّ جذورهم إلى أصل المدينة، بالإضافة إلى أبناء المدن المجاورة كرشيد ودمنهور وكفر الدوار وغيرها. وأيضًا بقايا الأجانب من أروام وطلاينة وأتراك وإنجليز وفرنسيين وغيرهم. الإسكندرية مدينة تختصر مُدنًا، والعديد من الحضارات. أنت تسير في شوارع المدينة، لا تطأ مجرد شوارع وحواري وأزقة، لكنك تطأ التاريخ منذ عصورٍ سحيقة. بلغ عدد سكان الإسكندرية، في العام المائتين قبل الميلاد، مليون نسمة. كانت ثاني مدينة في العالم بعد روما. وكان أهلها يتكلَّمون العديد من اللغات، وهي — الآن — واحدة من المدن الخمسين الكبري في العالم.

ثمَّة اجتهادات أنَّ الإسكندر لم يكن مؤسِّسًا للمدينة، لكنه قام بتوسيعها، وتحصينها، وتجميلها، لتُصبح ثغرًا للإمبراطورية التي كان يحلم بإقامتها. وبصرف النظر عن صحة تلك الاجتهادات أو العكس، فلعلَّه يمكن القول إن بداية الإسكندرية، المدينة التي نعرفها الآن، في قرية راقودة وجزيرة فاروس وقرى ومواضع أخرى، لكن قول الإسكندر وهو يشير إلى ما حوله: أريد أن أبني هنا عاصمة ملكي، ذلك القول كان هو البداية الفعلية لتخلق الإسكندرية ٢٠ يناير ٣٣١ق.م. صارت — فيما بعد — عاصمة البلاد، وعاصمة العالم الثقافية، وبلغت — بدمار الطبيعة — حد المحو، لكنها بُعثت من جديد — هذا هو التعبير الذي يحضرني — وزاد سكانها، ومساحتها، وتأثيرها الإيجابي في الحياة المصرية، والعالم جميعًا. بدا أن كل شيءٍ ينطلق من الإسكندرية، صارت أكبر عواصم العالم الهيليني آنذاك، فضلًا عن قيمتها المُتصدرة كملتقًى تجاري عالمي. وكما يقول تيودور الصقلي (٥٩ق.م.) فقد اعتبرها الكثير من الناس أعظم مُدن العالم، ووصفها استرابون بأنها «أكبر سوق تجارية على وجه الأرض». ورُويَ أنها نافست روما بفخامتها، وثرائها، وكثرة سكانها.

شهدت الإسكندرية — منذ إنشائها — الكثير من التجديدات والتعديلات والتوسعات، واجهت ظروفًا طبيعية وسياسية وتاريخية، لكنَّ بنيتَها ظلَّت متماسِكة. قام تخطيط المدينة على شبكةٍ من الشوارع، تتقاطع بزوايا قائمة، وفي مراعاة للأحوال الجغرافية وأحوال المناخ. اتجهت بعض الشوارع ناحية الشمال الجنوبي، بما يسهل للهواء تلطيف جو المدينة أشهر الصيف، وشوارع أخرى اتجهت ناحية الشرق/غرب لتسلم من أنواء (نوات) الشتاء، وثمة

شارعان رئيسان، عظيمان، تتفرَّع منهما بقية الشوارع. وكان من معالِم الإسكندرية المُهمة فنارها الضخم (أحد عجائب الدنيا السبع)، شُيد فوق صخرة عند الحد الشرقي لجزيرة فاروس، تهتدي بضوئه السفن التي تبعد عن الميناء بأكثر من خمسين كيلو مترًا.

توالت الهزَّات الأرضية، فأحدثت في الفنار تأثيراتٍ مدمرة، حتى تحول — في عهد السلطان المملوكي قايتباي — إلى أطلالٍ متهاوية، فشُيِّدت — بأحجاره — قلعة حصينة، هي الآن شخصية رئيسة في العديد من كتاباتي الإبداعية.

البحر السكندري ليس مجرد أمواجٍ وسفن وصيادين، إنه تاريخ وقصص وحكايات. تعدُّد الانتماءات الأثرية في قاع البحر السكندري يَشي بتعدُّد الحضارات. ثمة الآثار الفرعونية والرومانية والهيلينية والقبطية والعربية.

وكما أشرنا، فثمة اجتهادات تذهب إلى أن الموقع الذي شُيدت فوقه إسكندرية الإسكندر، كان يضم ثلاثة موانٍ فرعونية، بما يخالف الروايات التي أجمعت على وصل القرية راقودة وميناء فاروس (سكانهما من الصيادين الغلابة) في مدينة واحدة. كان الموقع يضم ثلاثة موانٍ فرعونية سابقة لزمن حملة الإسكندر. العالم الأثري السكندري فوزي الفخراني يرى — مستندًا إلى اكتشافات حديثة — أن المنطقة كانت تضم ١٢ قرية آهلة بالسكان. ما فعله مهندسو الإسكندر أنهم أعادوا تنظيمها، لتُصبح مدينة مؤلَّفة من ١٤ حيًّا، بالإضافة إلى أحياء جديدة لليونانيين والمقدونيين، وأحاط ذلك كله بسورٍ يحمي المدينة الوليدة من الاعتداءات الخارجية. ما أذهل المهندسين، وأذهل الشابَّ الطموح نفسه، أن إنشاء الموانئ الفرعونية مثَّل تحديًا لطبيعة البحر المتوسط. وكما يقول الفخراني فإن البحر يمتد من الشرق إلى الغرب، بينما الأرض تدور حول نفسها من الغرب إلي الشرق، مما يتسبَّب في تيارات بحرية في نفس اتجاه دورانها، وهي ظاهرة لا تُوجَد في البحار المُمتدَّة من الشمال إلى الجنوب، مثل البحر الأحمر. لاحظ الفراعنة أن السفن تدخل إلى ذلك المكان، تحتمي من التيارات البحرية، فاتخذوه ميناء.

أسير في شوارع الإسكندرية. يلفُّني الشعور بأنها الطابق الثالث من مدينة مُوغلة في القِدَم. إسكندرية الفرعونية، إسكندرية البطلمية، إسكندرية الحالية، العربية.

يُنسَب إلى رسول الله ﷺ قوله: «مدينتان من مدائن الجنة، هما من مدائن العدو. وإنهما ستُفتحان على أُمَّتي. إحداهما من مدائن الروم يُقال لها الإسكندرية، والأخرى من

مدائن الديلم يُقال لها قزوين. فمَن رابَط في إحداهما ليلةً واحدة، خرج من ذنوبه كيوم ولدتْهُ أمُّه». وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله يقول: «الإسكندرية وعسقلان عروستان، والإسكندرية أفضلهما، وإنها لتأتي يوم القيامة تزفُّ بأهلها إلى بيت المقدس. فمن رابط بالإسكندرية أربعين يومًا، كتب الله له براءةً من النار، وأُمِّنَ من العذاب. وخيار أهلها أفضل من خيار غيرها، وشرار أهلها أفضل من شرار غيرها. وهي مدينة ذي القرنين، مكتوبة في توراة موسى، وزبور داود، والإنجيل والفرقان. موصوفة في الكتب. يعرفها أهل العلم باسم الخضراء، واسمها في الزبور والتوراة المُذهَّبة، وفي القرآن مدينة ذي القرنين. يبعث الله منها سبعين ألف شهيد. وجوههم على صورة القمر ليلة البدر. يُعطي كل واحدٍ منهم نورًا على الصراط، ويشفع كل واحدٍ منهم لسبعين ألفًا، فطوبى لمن رابط فيها». وعن نافع بن عمر أنه استمع إلى الرسول يقول: «أحب الرباط إلي الله عز وجل رباط الإسكندرية، لأنها تزفُّ على الخلائق يوم القيامة في صورة مدينةٍ نورها يتلألأ، مُكللة بالدُّر والياقوت، وذلك بفضل شهدائها».

يصف ابن جبير الإسكندرية في زيارته لها في النصف الثاني من القرن السادس الهجري: «ما شهدنا بلدًا أوسع مَسلكًا منه، ولا أعلى مبني، ولا أعتق». وهي — في وصف ابن بطوطة — الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا. وهي — كما وصفها سليم الأول عقب زيارته الأولى لها — «إقليم لا نظير له». ويصف ابن عبد المنعم الحميري منار الإسكندرية — قُبَيل نهاية الألف الأولى من التاريخ الميلادي: «إن من دخله، ولم يعرف مسالِكه، تاهَ فيه وضل، لأن طُرقه تؤدِّي إلى أسفله، وإلى البحر. وقد قامت جماعة من المغاربة بالدخول إلى المنار وهم راكبون خيولَهم ليرَوا ما فيه من العجائب والغرائب، فتاهوا في الممرَّات، وضلُّوا طريقهم، وفُقِد منهم عدد كبير». وقيل إن أهل الإسكندرية كانوا يُوجِّهون مرآة المنار — بطريقةٍ مُعينة — بحيث تعكس أشعة الشمس نحو سفن الأعداء، وهي على بعد عشرات الكيلو مترات من المدينة، فتحرقها!

وفي ١٨٦٦م وضع محمود باشا الفلكي أول خريطةٍ للإسكندرية القديمة، أسفل بنايات الإسكندرية الحديثة. حدَّد مواقع الأحياء والقنوات وأماكن الآثار الغارقة في الميناء الشرقي (المينا الشرقية). الإسكندرية القديمة — معابدها وأحياؤها الملكية والوطنية — تحت قاع البحر، جزء منها يمتدُّ موقع قلعة قايتباي حتى موقع السلسلة بالشاطبي.

كانت قوة روما العسكرية في مواجهة مكانة الإسكندرية العلمية وثروتها المادية. والطبيعي أن تطمع روما في ثروة الإسكندرية، وأن تخشى الإسكندرية الغزو الاستعماري لروما. مع ذلك، فقد بلغت الإسكندرية من الاستقلالية في عهد الرومان، حدَّ تسميتها الإسكندرية المُلحَقة بمصر، أي القريبة من مصر، وليست المُتصلة بها.

بعد أن جلت جيوش الروم عن الإسكندرية، ودخلتها قوات المسلمين، كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يقول: «أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها. غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بيت، بها أربعة آلاف حمَّام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية، وأربعمائة مَلهًى للملوك، واثني عشر ألف بقَّال يبيعون البقل الأخضر ...»

كانت الإسكندرية هي دار العلم ومقر الحكمة — والتعبير للمقريزي — إلى أن فتحها عمرو بن العاص، واختطَّ مدينة الفسطاط، ليبدأ أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم في سُكناها، وتُصبح «قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتِنا هذا».

ومنذ قدمت جيوش الفاطِميِّين من المغرب، وتحوُّل مصر إلى مقر خلافة لهم، توثَّقت صلة الإسكندرية — تحديدًا — بالمغرب. أصبح — منذ الفتح — ولايةً تابعة لمصر الفاطمية، فكثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر عامة، وإلى الإسكندرية بنحوٍ خاص. كانت المدينة طريقهم من أراضي الحجاز إليها، وكانت أعداد كبيرة منهم تُؤثِر البقاء في المدينة، تجعل منها وطنًا تُواصل فيه حياتها. وثمة عشرات الأسماء لمغاربةٍ انتسبوا إلى الإسكندرية، علماء وتجارٍ وحرفيين وقضاةٍ وغيرهم.

كانت المدينة عامرة — نسبيًّا — ربما أكثر من زماننا الحالي، بالجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والخوانق والرُّبُط والحمامات والأسواق.

ظلَّت للإسكندرية أهميتها في العصر المملوكي. كانت تُمثل أحد مراكز التجارة العابرة أو المارة بين الشرق والغرب، حيث كانت التجارة تنتقِل إلى أوروبا عن طريقَين تقليدِيَّين: الخليج العربي والبحر الأحمر. وينتهي الفريقان — بواسطة القوافل — إلى الموانئ المصرية أو الشامية المطلة على البحر المتوسط، لتنتقِل إلى أوروبا على سُفن إيطالية تابعة لجنوة أو البندقية. وبالطبع، فقد كانت الإسكندرية من أهمِّ الموانئ التي انتقلت منها تجارة الشرق إلى أوروبا. وحين انتقلت الطرق التجارية بين الشرق والغرب من مصر والشام إلى جنوب أفريقيا — بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح — أُصيبت الإسكندرية بأضرار اقتصادية

هائلة، بل إن أهمية البحر المتوسط بعامة تضاءلت كثيرًا بالقياس إلى الأهمية المُتزايدة التي صارت للمحيط الأطلسي.

ولم تسلم الإسكندرية من التأثيرات السلبية للعصر العثماني. انكمشت رُقعتها العمرانية، وبلغ عدد سكانها — في أعوام الحملة الفرنسية — (١٧٩٨–١٨٠١م) ثمانية آلاف نسمة فقط. ثم بدأت المدينة تطورًا ملموسًا منذ عام ١٨٠٧م. اتسعت مساحتها، وبدأت في استعادة ما كان لها من مكانة في البحر المتوسط. ثم تحقَّقت لها مكانة متفوقة بعد حفر ترعة المحمودية في١٨٢١م. صارت شريانًا رئيسًا للمواصلات مع بقية أنحاء مصر، ومنفذًا للتجارة مع العالَم. ثم أضاف إلى تلك المكانة مدَّ خطوط السكك الحديدية في ١٨٦٥م، وتعاظَم الدور المدني للإسكندرية بعامة، حتى أصبحت المدينة الصناعية المصرية الأولى، فضلًا عن دورها الثقافي المُتمثل في الإصدارات الصحفية والأدبية، وعشرات المُبدعين في المجالات المختلفة.

بدأت صناعة دبغ الجلود على أُسُس حديثة في الإسكندرية في ١٨٨٥م، ونمَت في النصف الأول من القرن العشرين. وعندما فكَّرت شركة باتا في إنشاء مصنعها الكبير، اختارت له منطقة القباري، قريبًا من المدابغ. أما صناعة السجاير فهي أساسية في الإسكندرية. ونصف عمَّال هذه الصناعة يُقيمون في المدينة (في ١٩٤٩م بلغ عدد المصانع بالمدينة ١٨١٦٠ مصنعًا، مجموع عدد عمالها ٩٥٥٨٧ عاملًا). وبالإضافة إلى أن سوق التُّرك تخصَّص في صُنع الأثاث، فقد كان — ذات يوم — هو خان خليلي الإسكندرية، ولكن الغلبة دانت للعطَّارين. وفي أواخر القرن الماضي، كانت نسبة الصناعة في الإسكندرية هي ٤٠٪ من الصناعة المصرية.

ولاشك أنه كان لدخول الطائرة وسيلة انتقالٍ جديدةً إلى جانب الباخرة، تأثيرُه المباشر على مكانة الإسكندرية (أعني التعبير) لم تعُد الإسكندرية هي الميناء الأول كما كان الحال منذ آلاف السنين، منذ استخدم الإنسان البحر طريقًا لأسفاره بين البلدان، بواسطة السفن. صارت الطائرة وسيلةً أهم للتنقُّل، وشُيِّد لها مكان يقصده المسافرون من مصر، والعائدون إليها، فتخلَّت الإسكندرية عن مكانتها المُستقرة، نتيجة تحوُّل مينائها — في مجال نقل الركاب بخاصة — إلي مرتبة تالية. كما تحوَّلت صادرات وواردات كثيرة من ميناء المدينة، ولم تعُد للميديا مكانتها السابقة (أُذكِّرك بأن النسخة الأولى من الأهرام صدرت في الإسكندرية)، وأدَّت حرب ١٩٥٦م، وما تبِعَها من خروج الجاليات الأجنبية، إلى تخلي الإسكندرية عن صِفتها كمدينة كوزموباليتينية، وهو ما انعكس في العديد من أعمالي الروائية والقصصية، مثل الشاطئ الآخر، زمان الوصل، أهل البحر، وغيرها.

وعلى الرغم من تعدُّد المطارات والموانى البحرية، فإن أكثر من ٩٥٪ من تجارة مصر مع الخارج تخرُج من الإسكندرية، وتدخُل منها.

بلغ عدد سكان الإسكندرية — في إحصاءات علماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م — ثمانية آلاف نسمة فقط. وكانت المدينة — كما وصفها علماء الحملة — ملأى بالمناطق الخَرِبة، بينما كان عدد سكان رشيد في العام نفسه حوالي مائة ألف نسمة. وقد تناقص عدد سكان المدينة عند رحيل الحملة عن البلاد إلى ثمانية آلاف فقط، لم يكونوا جميعًا من الوطنيين، وإنما كانت هناك جاليات من المغاربة والسوريين والأروام واليهود. وفي ١٨٢٠م تمَّ حفر قناة المحمودية، فبدأ ميلاد الإسكندرية من جديد. كانت — قبل ذلك — محصورةً بين الميناءين الشرقي والغربي، ويقتصر عمل غالبية السكان على الصيد. كان النمو العمراني هو الظاهرة الأساسية بعد إنشاء ترعة المحمودية، فقد بُنيت أرصفة الميناء الغربية ما بين سنتَي ١٨٢٨م و١٨٣٣م، واقتصر نشاط المدينة البحري عليها، بينما بطل استخدام الميناء الشرقي. كما أُنشئت الترسانة البحرية، ووفَّرت قناة المحمودية للسكان مياه الشرب من النيل، وأتاحت زراعة مساحاتٍ من الحقول والحدائق على جانبي الترعة. وكما يقول كراوتشلي فمن المؤكد أن النموَّ التجاري لمصر كان سيُعوَّق ويختنق لولا قناة المحمودية وميناء الإسكندرية (التصنيع والعمران ١٠٦).

في يناير ١٨٩٠م صدر مرسوم (تعدَّل في ١٩٣٥م) بتشكيل مجلس بلدي الإسكندرية، ليضطلع بأعباء تخطيط المدينة، وتنظيمها، ورفع مستواها الإداري والمدني والصحي والاجتماعي. واللافت أنه لم ينشأ مجلس مُماثل في القاهرة إلَّا في ١٩٥١م، أي بعد إنشاء مجلس بلدية الإسكندرية بواحد وستِّين عامًا.

كانت المياه تصِل إلى ميدان المنشية، وكانت تُغطي موضع تمثال الجندي المجهول. وفي الفترة من ١٩٠٩م إلى ١٩١٢م أُنشئ كورنيش من رأس التين إلى السلسلة. وفي ١٩٣٠م بدأ استكمال الكورنيش من السلسلة إلى المُنتزة. وفي ١٩٣٣م تمَّ بناء الكورنيش، وبدأ انقلاب عمراني واجتماعي. فقد زحف السكان بمبانيهم نحو البحر بعد أن كانوا يتحاشَونه، وارتفعت أسعار الأراضي المتاخِمة للشاطئ إلى حدٍّ كبير. وبالطبع فإن البيوت على طريق الكورنيش تحمِل أرقامًا فردية وزوجية، لأن الجانب المُقابل هو البحر.

ظلَّت الإسكندرية أكثر المدن المصرية استجابةً للمؤثرات التركية التي لم تزل بصماتها ظاهرة حتى الآن. أما اليهود، فقد ظلوا — إلى قيام دولة إسرائيل في ١٩٤٨م — أهم الجاليات في الإسكندرية سواء من حيث العدد، أو تميُّزهم في مجالات الصناعة وتجارة القطن. وأما اليونانيون فقد كان معظم نشاطهم يتَّجِه إلى محالِّ البقالة والحلوى والمقاهي والحانات، وشراء الأراضي الزراعية من خلال التعامُل بالربا. وبالنسبة للإيطاليين فقد كانوا يُمارسون أنشطةً تجارية وصناعية مُختلفة. وكان الدكتور مردروس — الطبيب الذي كان يسكن الطابق الأول في بيتنا — والأرمن الذين أقاموا في مصر عمومًا، من الناجين من مذابح الأتراك في بداية القرن العشرين. حتى الألمان كان لهم جالية في المدينة. وكان رودلف هيس — نائب هتلر — من مواليد الإسكندرية.

وتقول الإحصاءات إن عدد الأجانب في الإسكندرية بلغ — عام ١٩٠٧م — ٨٦٣٩٤ من مجموع سكانها البالغ ٣٥٣٨٠٧. أما إحصاءات ١٩١٧م فقد أثبتت أن تعداد سكان الإسكندرية بلغ ٤٥٠ ألف نسمة، سُدسهم من الأجانب: يونانيون وإيطاليون وإنجليز وأرمن، فضلًا عن الشوام. وبلغ عدد الأجانب في ١٩٢٧م، ٩٩٦٠٥ من مجموع عدد السكان البالغ ٥٧٣٠٦٣. وكان عدد الأجانب في الإسكندرية يمثل ٦٠٪ تقريبًا إلى عددهم في مصر كلها.

صاحَب تزايد أعداد الأوروبيين في الإسكندرية، تغيُّرٌ واضح في العادات والتقاليد وسلوكيات الحياة اليومية. انتقلت المدينة — على سبيل المثال — من التأثُّر بالعمارة التركية، إلى الأخذ بالأنساق المعمارية الأوروبية بواسطة المهندسين المِعماريين الذين استقدَمَهم محمد علي لبناء الشوارع والميادين والأسواق والبنايات التي تُشكِّل مصر التي كان يُريدها. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت الإسكندرية — على حدِّ تعبير محمد عوض محمد — مدينة نصف أوروبية، تُضاهي ميادينها مثيلاتها من المدن الفرنسية. وامتدَّ التمايُز المعماري إلى الكنائس المتعددة للأقباط الأرثوذكس واليونان الأرثوذكس والموارنة والبروتستانت والروم الكاثوليك، وغيرها. لكن الإسكندرية تدين بالملامح العصرية للخديو إسماعيل، بدايةً من ترميم الأسوار القديمة، ونهايةً بإنشاء الأحياء الجديدة الراقية، مرورًا بالميناء الجديد، وعمليات التجميل والتشييد والتحديث.

روايتي «الشاطئ الآخر» تتعرَّض للفترة المفصلية التي تخلَّت فيها الإسكندرية عن هويتها الكوزموباليتينية. استردَّت — بعودة آلاف الأجانب إلى البلاد التي قدموا منها — هويتها

الوطنية. أدركت الأم اليونانية أن تصوُّر انتمائها المصري هو تصوُّر غير صحيح (أُذكِّرك بالمرأة الأخرى، الفرنسية، في قصتي القصيرة الأكسر) وأن العودة إلى وطنها الحقيقي هو ما ينبغي أن تفعله. أقدمَ على التصرُّفِ نفسه عشرات الألوف من أبناء الجاليات الأوروبية، وجدوا في تطورات الأحداث ما يحضُّ على فعل المُغادرة. لم يعُد في المدينة — إلا نادرًا — شخصيات مثل جوستين وكليا وبلثازار وميليسا. غابت الإسكندرية الكوزموباليتينية. حلَّت محلَّها، أو عادت، الإسكندرية الوطنية، قِوامها الصيادون والبحارة وعمال الميناء وأبناء الطبقة الوسطى، وغيرهم.

فرضت العربية نفسها لغةً وحيدة أو تكاد، في الرسائل والمُخاطبات العادية، ووجدت اللافتات المكتوبة بالعربية موضعًا بين اللافتات المكتوبة بالفرنسية والإنجليزية.

ظنِّي أنه لو أن أبي ظلَّ على قيد الحياة حتى عام ١٩٥٦م وما بعده، فإن ظروف عمله كانت ستتأثر إلى حدٍّ كبير. كانت مكتبة أبي تضمُّ كتبًا بلغاتٍ لا أفهمها. عرفت أنها الإيطالية والألمانية واليونانية والتركية، يتشكَّل عمله في الترجمة من لغةٍ إلى أخرى. ذلك ما كان يفرضه الواقع الاقتصادي آنذاك. وكان من البديهي — في اقتصار لُغة المعاملات على الفرنسية والإنجليزية — بالإضافة إلى العربية — أن يتحدَّد مجال عمل أبي بالتالي في هذا المجال الضيق.

ثمة أغنيات تستثير وجداني، فيُغيِّم الدمع في عينيَّ لملائكية صوت فيروز وهي تُغني لشط الإسكندرية، وأغنية محمد قنديل عن عشق العين لأهل الإسكندرية، وهتاف علي الحجار: مَدَدْ يا مُرسي ... ألحق لي كرسي. أغنيات تُحرك مشاعري، تُعيدني إلى البحر والشاطئ والناس والجوامع وحلقات الذِّكر والجلوات وسوق العيد وزحام شارع الميدان ورحلات السمان والبلانسات والأمطار وتصريف المياه في جوانب الشوارع والفريسكا والذرة المشوي وصيد العصاري والجرَّافة والطرَّاحة والسنارة.

إذا كان المكان يغيب برحيلنا عنه، فإننا نستعيدُه بالحنين. أتأمَّل الأمطار — من وراء زجاج النافذة — وهي تسقط على القاهرة. ينقلني الحنين إلى الإسكندرية. أستعيد مشهد الأمطار المُتساقطة على شوارع الإسكندرية. الأغنية التي كنَّا نُردِّدها في سِنِي الطفولة: يا مطرة رخِّي رخِّي ... على قرعة بنت أختي. للشتاء في الإسكندرية — ولأوقات المطر بخاصة — طبيعة مغايرة.

الأمطار تغسل الإسكندرية أشهُر الشتاء، ما بين أولى النوات وآخرها، «نيولوك» تُعِدُّه لاستقبال الصيف، ولاستقبال زوارها بخاصة.

في الشتاء، وربما منذ الخريف، تقتصِر الإسكندرية على أبنائها، يُعيدون التعرُّف إلى الأماكن التي كان يخنقها الزحام. لم تمثل الحياة على الشاطئ — أشهُر الصيف — إغراءً من أي نوع. أكتفي بالجلوس تحت المِظلة، والتطلُّع إلى الأفق.

قلتُ لأبي — ذات عصر — أثناء متابعتنا لعملية صيد المياس: ماذا في الشاطئ الآخر؟

– أي شاطئ؟

– الضفة المُقابلة لهذا البحر!

– إيطاليا واليونان وفرنسا وتونس والجزائر وبلاد أخرى كثيرة تُطلُّ عليه.

– هل تختلف عن الإسكندرية؟

– لها مدن على الساحل مثل الإسكندرية، لكنها تختلف في أشياء كثيرة.

قاطَعَني قبل أن أسترسل في الأسئلة: عندما تكبر، سيُتاح لك زيارة كل تلك البلاد، وتعرف الفرق بنفسك!

الإسكندرية: البحر والبشر والأسواق والشوارع والعادات والتقاليد، نبض الكثير من اللوحات لفنانين مِصريين وعالمِيِّين، هي كذلك نبض الكثير من الأعمال الروائية والقصصية وقصائد الشعراء المُبدعين من أبنائها، ومن الوافدين إليها. فرض المكان السكندري نفسه، بطلًا، وسيدًا، ومسيطرًا. أذكر من الأدباء الأجانب الذين عاشوا في الإسكندرية، وحقَّقوا شهرة عالمية: لورنس داريل الأيرلندي، وأونجريتي الإيطالي، وأ. إم. فورستر، وكفافيس اليوناني، وفشتر السويسري، وهنري تويل الفرنسي، وغيرهم.

الإسكندرية ليست مجرد مدينةٍ ساحلية، ليست مجرَّد بحرٍ وشاطئ وميناء. إنها حياة متفردة لا تُماثلها مدينة أخرى تطلُّ على البحر، ولها شواطئها وميناؤها، أبواب مفتوحة على البحر. أنت تجد التفرُّد في عبق الروحانية، وفي احتضان البحر للمدينة بما يُشكِّل منها حدوة حصانٍ أو شِبه جزيرة، وفي المُعتقدات والعادات والسلوكيات التي تسِم مظاهر الحياة بالمُغايرة والاختلاف.

الحنين إلى بحري

«ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلد، خير البلاد ما حملك»

الإمام علي بن أبي طالب

حين خرج الرسول ﷺ مُهاجرًا من مكة إلى المدينة، تطلَّع إلى البيت الحرام بنظرات حُب، ثم قال مُخاطبًا مدينته المقدسة: «والله إنك لأحبُّ أرض الله إليَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». وفي الحديث الشريف «الخروج من الوطن عقوبة». وقال عمر بن الخطاب «لولا حُب الوطن لخرب البلد السوء». وروى الدينوري عن الأصمعي قوله: قالت الهند: ثلاثُ خصالٍ في ثلاثة أصناف من الحيوان ... الإبل تحنُّ إلى أوطانها وإن كان عهدها بعيدًا، والطير إلى وكرِه وإن كان موضعه مُجدبًا، وإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعًا. وقال الأصمعي: سمعتُ أعرابيًّا يقول: إذا أردتَ أن تعرف الرجل، فانظر كيف تَحنُّنُه إلى أوطانه وتَشوُّقُه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه. وقال الشاعر العربي لمحبوبته: «سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا». والمثل يقول: «لا يعرف القُرب إلَّا من ابتعد». وثمَّة العديد من الكتُب التي جعلت الوطن محورًا لها: حنين الإبل إلى الأوطان لربيعة البصري، حب الوطن، والحنين إلى الأوطان للجاحظ، الشوق إلى الأوطان للسجستاني، حب الأوطان لأبي الفضل أحمد بن طاهر، الحنين إلى الأوطان للكسروي، الحنين إلى الأوطان لابن إسحاق الوشَّاء، أدب الغرباء للأصفهاني، المناهل والأعطاف والحنين إلى الأوطان للرامهرمزي، الحنين إلى الأوطان للتوحيدي، النزوع إلى الأوطان للسمعاني، وغيرها.

لفيكتور هوجو مقولة طريفة: «عندما كنتُ صغيرًا، تمنَّيتُ أن أكون كبيرًا، فلمَّا كبرتُ عاودني الحنين إلى شبابي».

ويروي عباس خضر في ذكرياته أنه رأى شابًّا في قطار الصعيد يَبكي. سأله: مالك؟

– الغربة!

– أية غربة؟ وإلى أين أنت ذاهب؟

– إلى أسيوط. نقلوني إلى أسيوط. منهم لله!

ويقول الشاعر الإنجليزي وليام وردورث «الطفل أبو الرجل»، أي أن فترة الطفولة تترك تأثيراتٍ في فترات عُمر الإنسان التالية، لا تُفارقه، وتظلُّ مخزونًا يُفيد منه إذا كان مبدعًا. وفي رائعتِهِ القصيرة على مَن يقع اللوم يعتذِر بلزاك عن الإسهاب الذي تناول به مَعالم الشارع الذي تدور فيه أحداث القصة، فقد كان الحنين إلى الشارع الذي شهِد طفولة بلزاك هو الدافع لكل ذلك الإسهاب. المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته — والقول لبرجسون — هو الفردوس المفقود، وهو يظلُّ في حياة صاحبِهِ كأنه ماسة في عنق الأبدية. وقد تتعدَّد الأماكن التي يُقيم فيها الإنسان، ولكن يظلُّ لمكان الطفولة تفرُّدُه، وسَمتُه الخاص، وحميميتُه المُطلقة. ويقول فوكنر: «أستطيع أن أكتُب عن قريتي وأنا خارجها دون توقُّف على الإطلاق». وحين سُئِل جابرييل جارثيا ماركيث: لماذا لا تعيش في وطنك كولومبيا؟ أجاب: مَن قال إني لا أعيش في كولومبيا؟ لقد غادرتُ الوطن، لكنَّني ما زلتُ أحيا في كولومبيا! بل إنَّ ماركيث يؤكد — في بساطة — أنَّ «مائة عام من العزلة» و«خريف البطريرك» و«قصة موت معلن» و«الحب في زمن الكوليرا»، جميعها جاءت من الحنين. وكان باعث الرواية الأولى لإيزابيل الليندي «بيت الأرواح» هو الحنين «الرغبة في استعادة العالم الذي فقدتُه بعد أن اضطُررتُ لمغادرة وطني والعيش في المَنفى». وكما يقول ميشيل بوتور، فعندما يكون المرءُ بعيدًا عن وطنه، وقد أسرَتْهُ الأماكن التي كان يحلُم بها، فإنه يحلُم بوطنه، ويشعُر بحنينٍ إليه، ويظهَر له بألوان الطيف. ولعلَّنا نَتبيَّنُ التأثير الإيجابي للحنين إلى المكان، إلى الموطن والوطن والنشأة، في إبداع جوجول روايته «النفوس الميتة» فترة إقامته في روما، وإبداع تورجنيف كل رواياته وهو بعيد عن الوطن، وإبداع ديستويفسكي أجمل رواياته في مدينة دريسدن. ولعلِّي لا أجِدُ مبالغةً في قول باسترناك — تعبيرًا عن الحنين — إنه موجود في الحياة فقط، لأنه يأمُل برؤية أهله وإخوته الذين هاجروا إلى المَنفى، حتى لقد سُمِّى نفسه «عضو العائلة بالمراسلة».

الحنين إلى الماضي، إلى الزمان والمكان، تُكوِّن أساسًا في طبيعة الإنسان المصري، في شخصيته. وتُعد قصة سنوحي أول عملٍ إبداعي عن الحنين إلى الوطن. سنوحي الوزير الأول للفرعون. فرَّ من تُهمة ظالمة إلى أرض الشام. تواصلت أيامُه هناك في هناءةٍ وسعادة. وكانت الصحراء الشاسعة تُردِّد أغنياتِه وقصائده وأنغامه العذبة، حتى وصل صداها إلى شواطئ النيل، وردَّدها المصريون في كل أنحاء الوادي، لقرونٍ خمسة متوالية. لكن سنوحي ظلَّ على حنينه إلى وطنه وحبيبته تيكاهيت، يُغني لها الألحان الجميلة على قيثارته ونايه: «أيها الإله العظيم، يا من أمرتني بالهروب، وحمَيتني بالغربة. كن رحيمًا، وأعِدني ثانيةً إلى قصر الملك لأرى المكان الذي يسكن فيه قلبي، وأن تُدفن جثتي في الأرض التي وُلدتُ فيها، وخرجتُ منها، وبقُرب من أحببت». وظلَّ سنوحي على حنينه وأملِه في العودة إلى وطنه، حتى عفا عنه الفرعون سنوسرت، بعد أن تأكَّد أن فرار سنوحي من وطنِه لم يكن إلَّا للخوف على حياته من التآمُر.

أثق أن «الحنين» كان هو الباعث لكتابة محمد حسين هيكل روايته زينب، والأعمال الأولى للحكيم. النظر إلى الوطن من بعيد، كالنظر إلى الماضي تمامًا، ينبض بالحنين، يتطلَّع بالمنظار الوردي، يُهمل السلبيات فلا يشغل الصورة إلَّا كل ما هو رائع ومُشرق وجميل. وربما الْتمع الدمع في العينَين لحديثٍ عابر، وانثالت عشرات الصور والذكريات.

لو أنَّ محمد حسين هيكل ظلَّ في مصر، ولم يُسافر إلى باريس للدراسة، هل كان يكتُب روايته الرائدة زينب؟ ولو أنَّ توفيق الحكيم تقدَّم لنَيل الماجستير، فالدكتوراه، في مصر، ولم يُحاول الحصول عليهما في السوربون، هل كان يُهمل الهدف الذي سافر من أجله، ويكتب — في شبه تفرغ — عودة الروح، وعصفور من الشرق، وزهرة العمر؟

زينب — كما يقول هيكل — «ثمرة حنين للوطن وما فيه، صوَّرها قلَم مُقيم في باريس، مملوء — مع حنينِه لمصر — إعجابًا بباريس، وبالأدب الفرنسي». ويقول هيكل في تقديمِه للرواية إنه «لولا هذا الحنين، ما خطَّ قلمي فيها حرفًا، ولا رأت هي نور الوجود». اختلط في نفسه الولع بالأدب الفرنسي بحنينِه العظيم إلى مصر. وكان من ذلك — على حدِّ تعبيره — أن همَّ بتصوير ما في نفسه من ذكرياتٍ لأماكن وحوادث مصرية. ويذكر أنه بدأ في كتابتها بالعاصمة الفرنسية في إبريل ١٩١٠م، وفرغ منها في مارس ١٩١١م، وإن كتب أجزاءً منها في لندن وفي جنيف أثناء الإجازة الصيفية. ثم دفع بها إلى المطبعة في ١٩١٢م. أما توفيق الحكيم فهو يتساءل: «هل من الشعور الطبيعي للإنسان أن يتوهَّج

فيه الحنين لوطنه كلما زاد بعده؟ ... كل الذي أعرفه أنَّني لم أعش داخل بلدي بحرارةٍ وقوةٍ وحبٍّ للوطن مثلما عشتُ في الوقت الذي كنتُ فيه بعيدًا. هناك في باريس، حوالي سنة ١٩٣٦-١٩٣٧م، أدَّي بي التفكير إلى استعادة أعنفِ ما مرَّ بي منذ ثماني سنوات، أي فكرتُ في ثورة مصر سنة ١٩١٩م، عادت إليَّ وأنا في الغربة بكلِّ عنفٍ مشاعرها، بكلِّ ما فيها من ذكريات، بكلِّ ما حاطها من ظروف وملابسات. وفي الغربة — حيث يُصبح كلُّ شيءٍ مُجسَّمًا والمشاعر أشد احتدامًا، والحنين في أعلى درجة حرارة — هناك بدأتُ أجسِّد هذه المشاعر الوطنية تجسيدًا فنيًّا واقعيًّا. وكان هذا هو مبدأ عملي في عودة الروح». حمل الحكيم مصر معه إلى باريس، وكتب فيها عودة الروح التي تُعَد — رغم تقضِّي الأعوام — عملًا طازجًا وجيدًا، وإن أدار فيها حوارًا مُصطنعًا بين إنجليزي وفرنسي، أكَّد فيه عظمة هذه المعشوقة الغالية، البعيدة: مصر! ويتحدَّث يحيى حقي عن الأعوام التي أمضاها في السلك السياسي المصري خارج البلاد: «لم أنقطع عن التفكير في بلادي وأهلها. كنتُ دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزقِ يومٍ بيوم». ومع أن الكاتبة المصرية المولد والنشأة أندريه شديد قد استوطنت فرنسا منذ سنوات، فإن الحياة المصرية هي نبض غالبية أعمالها، يدفعها — باعترافها — ذلك الحنين الشاعري نحو بيئتها الأولى وناسها الأصليين!

الإحساس بالغربة بعيدًا عن الوطن، والحنين — في المقابل — إلى الوطن، يَنطلِقان من الأمثال الشعبية «الغريب أعمى ولو كان بصير» ... «من خرج من داره اتقل مقداره» ... «الغربة طربة تقل بالأصول» ... «البطيخة ما تكبرش إلا في لبشتها» ... إلخ. فإذا أُثير حديث الرحيل، قال المثل: «رب هنا رب هناك»

اللافت أنَّ مُعظم الأعمال الإبداعية تصدُر عن حنينٍ إلى الزمان أو المكان، أو إليهما معًا. وإذا راجعتَ معظم ما كتبت من إبداعات، فإنها محاولة للسَّير فوق ذلك الجسر المُسمَّى الحنين إلى عوالم مكانية وزمانية ...

الحنين إلى المكان حالة يُسمِّيها علماء النفس «النوستالجيا»، بمعنى الافتقاد، أو الحنين. وكان الشعراء العرب القُدامى يُكررون ذِكر أسماء الأماكن في قصائدهم، كأنها أسماء من يُحبُّونهم. أُذكِّرك ببيت الشعر القائل:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدُّخول فحومل

الحبيب والمنزل في بيتٍ شعري واحد، لحظة حنين واحدة.

تبدو الشوارع والميادين والحدائق والأبواب أضيقَ ممَّا تعِيه ذاكرتي. أقف أمام البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبري. أشعر أني كنتُ هنا من قبل، وأن صداقتي قديمة لهذه البناية. كنت أجلس — في المدخل — على دكَّة عمِّ أحمد البواب (كيف كانت هذه المساحة الضيقة تسَعُني؟!) أصعد السلالِم إلى الطابق الثالث، أنظر من النوافذ ما بين الطوابق إلى الشارع الخلفي، أو إلى مئذنة سيدي علي تمراز، أدخل الشقة ذات الصالة والحجرات الثلاث، تُطل واجهتها على شارع إسماعيل صبري، وتُطل — من ناحية — على شارع فرنسا وشارع رأس التين، ومن الشرفة الخلفية على ميدان الخمس فوانيس وشارع رأس التين، يلتقي الميدان بشارع الأباصيري المُفضي إلى ميدان أبي العباس، وشارع محمد كريم (التتويج)، ويتَّجه الشارع — من ناحية — إلى شارع سراي مُحسن باشا، ومنه إلى الكناني والموازيني، ومن ناحية ثانية إلى الموازيني والحجاري والمسافرخانة وأبو وردة، وباب الجمرك رقم واحد.

لا أذكر من كلام أبي عن ساكن الطابق الأول — يمين السُّلم — الطبيب الأرمني مردروس، أنه كان يُعالج نوعًا مُحددًا من الأمراض، مرضاه ما بين الأطفال والشيوخ، إذا مرض أحدُنا فإنه يتردَّد على مردروس، بصرف النظر إلى سنِّه. ثم عاد الطبيب الأرمني إلى بلاده أرمينيا قبل أن أبلُغ العاشرة. حاولتُ أن أخمِّن البواعث في روايتي «صيد العصاري»، حصلت أرمينيا على استقلالها، فعاد المهاجرون من مُدن الشتات إلى بلادهم. استأجرَتْ شقة الطابق الأول أُسرة مصطفى أفندي (لا أذكر بقية الاسم)، وكان مُوظفًا بديوان محافظة الإسكندرية. ظنِّي أنه كان وثيقَ الصلة بأصوله الريفية، ذلك ما لاحظتُه في الزيارات المتوالية لرجال ونساء يرتدون ثيابًا ريفية، ويحملون الأقفاص والقُفَف. بدأت صداقة أبي ومصطفى أفندي منذ هبط الجار الجديد إلى قهوة المهدي اللبان أسفل البيت، موقف يُشابه نشوء العلاقة بين عبد الله الكاشف في روايتي «البوصيري» (رباعية بحري) وجلساء القهوة. وعرفت — بعد وفاة أبي — أنه كان يخصُّ جاره وصديقه بأسرارٍ شخصية للغاية. الشقة المُقابلة لأسرة الأستاذ سليمان الموظف المُهم في مصلحة البريد (لجأ أبي إليه في مراتٍ كثيرة، كي يُرسِل طرودًا إلى عمَّتي وعمِّي في القاهرة، بنظام «من الباب إلى الباب»، وهو خدمة بريدية مُهمة، أُلغِيَت لأسبابٍ غير مفهومة، وإن سهل فهمها في السياق المُجتمعي العام!) وكان الرجل أبًا لأربع بنات، اثنتان تكبُرانني في السن، واثنتان أصغر منِّي، وإن لم تُفرِّق مناوشة هواجس البلوغ في نفسي بين بنتٍ وأخرى.

رحلت أسرة عبده فرج الصبروتي من الشقة المجاورة للسلم، إلى شقةٍ في شارع سيدي منصور خلف فرن حبيب، ثم رحلت إلى شقة في شارع الميدان. كان رب الأسرة مقاولًا وتاجرًا في العقارات، يسكن في شقة بآخر البنايات التي يُشيِّدها، ثم ينتقل إلى شقة في بنايةٍ حديثة أخرى، وهكذا. شقة الصبروتي في شارع سيدي منصور هي المكان البطل في روايتي «زمان الوصل». سكن الشقة أستاذ بكلية الطب اسمه النجار، لم يكن لدَيه أبناء، وكانت زوجُه التي تصغُرُه بسنواتٍ منطويةً على نفسها، بعكس شقيقته التي كانت تُماثلها في السن، لكنها كانت تملك جرأةً وقدرة على الاقتحام، تشجَّعتُ — بتحريض مُعلَن — فحاولتُ تقبيلها، وأرجعَتْ تملُّصها إلى مشروعاتي الجنسية الفاشلة، الكثيرة. أذكُر أن النجار هو الذي تابع الحالة الصحية لأُمي بعد أن اشتدَّ عليها مرض القلب، وهو الذي أنبأ أبي بقُرب رحيل أُمي، فلا بأس من أن تشرب كمية الماء التي تطلُبها. الشقة المقابلة في الطابق نفسه، أشرتُ إليها في سيرتي الذاتية الروائية «مد الموج». أسرة يهودية عزلت نفسها في «جيتو» حتى فُوجئ سكان البيت بخلوِّ الشقة (عرفنا — فيما بعد — أن الأسرة رحلت إلى فلسطين). حلَّت في الشقة أسرة أخرى مُسلمة، سيدة وابنان وثلاث بنات، مثَّلت صغراهنَّ في مُراهقتي حلمًا رومانسيًّا جميلًا، أجهضَتْه سذاجتي، وعبث أصدقاء صباي، وهو ما شكَّل لوحة في «مد الموج».

لم أتصوَّر أن في حياة أسرة عمِّ سيد (الطابق الرابع) ما يُجاوز المألوف، أسرة من ولدٍ وابنتَين، تمامًا مثل أُسَرٍ أخرى كثيرة، في البيت، وفي الدنيا كلها. الزمن هو ما لم أفطن إليه في تلك الأعوام الباكرة من طفولتي، انتقال عمر المرء — رجل أو امرأة — من الطفولة إلى الصبا، فالشباب، فالكهولة، فالشيخوخة. وكان عم سيد شيخ الأسرة، وإن اقترب أبناؤه من التسمية بوقوفهم على حافة غروب الكهولة. أزمع الابن الأكبر أن يُرجئ زواجَه، حتى تتزوَّج أختاه، لكنَّ الأعوام توالت دون أن يطرُق الباب خاطب. وتبينت الأسرة — عادة الزمن! — أن سِن الزواج قد فات، ربما ليس للابن الذي قارب المعاش، فالرجل — في بلادنا — يجد الزوجة الصالحة — والتي قد تصغرُه بعشرات السنين — في كل الأحيان. أما المرأة التي تُجاوز الثلاثين، فإنها قد تُوافق على الزواج من أرمل، له أبناء، أو عجوز مأربه الأهمُّ فيها أن تُمرِّضه، وتُحسِن رعايته، حتى تأتي اللحظة التي تغمض فيها عيناه!

اتجه أبي بابتسامته إلى الناحية المُقابلة، حين فسَّر عم أحمد البواب عزوف الابن الأكبر بسببٍ غير انتظار زواج الأختَين، عشقته جنِّية — يرى عم أحمد طيفها الليلي — ومنعته من الزواج!

فسَّر لنا أبي — فيما بعد — رواية عم أحمد، بأن الرجل ضاق بتقتير الأسرة، فهي تكتفي بالأجر الشهري الذي يتقاضاه من صاحِب البيت!

أستعيد الآن ظروف الأسرة: هل أثَّرت عدم اجتماعية الابن الموظف بمصلحة الجمارك على مصير الأختَين، فلم يزُره أحد، يُطالع ما يدعوه إلى طلب قراءة الفاتحة؟

ما أذكره أن أولاد البيت وبناته كانوا هم زوَّار الشقة، يجدون ترحيبًا من الأختَين، يشمل مشاركتهم اللعب، وترديد الموروث من أغنيات الطفولة، وتقديم العصائر الباردة من الثلاجة الخشبية.

كان قدوم الطبيب الأرمني إلى عيادته في الطابق الأول يعني انصرافنا إلى حيث ألقت. لا أذكر أن أُسرة عم سيد شهدت من الأحداث ما يستدعي إنهاء إقامتنا شِبه الدائمة في الشقة. كانت أسرة منطوية على نفسها بامتياز. لعلَّ هذا هو السبب في إقامة العنوسة داخل الشقة، تأكل وتشرب وتنام، وتحرص على إغلاق الباب والنوافذ والشرفات!

أذكر أن المشكلة نفسها ناقشها أبي وأمي في دردشاتهما، عن شقة الدخاخني المُقابلة: الزوجين وأبنائهما الثلاثة، شابٍّ وفتاتَين. كانت أُمي تهمس بإشفاقها من الزمن الذي يكاد يمضي بعيدًا، فلا تلحَق البنتان سِن الزواج. ماتت أُمي، ثم مات أبي، وانتقلت أُسرة الدخاخني — بعد وفاة الأبوَين — إلى القاهرة (في روايتي «زمان الوصل» تأمَّلتُ ما تصير إليه حياتنا بفعل الزمن!) وعرفت — من أصدقاء — أن البنتَين قد تزوَّجتا، بعد أن جاوزتا — في تقديري — سِن الإنجاب!

ظنِّي أن موقع البيت — ٥٤ شارع إسماعيل صبري — كان له دَورُه المُهم في تخلق وعيي بصورةٍ طيبة، قُربه من أبي العباس، وامتداده إلى المنشية ومحطة الرمل وأحياء المدينة الأخرى، أتاح للجلوات أن تخترقه من شارع الأباصيري، كما كانت المظاهرات السياسية ومواكب المسئولين القادمة من باب الجمرك رقم واحد تأتي من شارع أبو وردة، أو شارع رأس التين.

تابعت — من شرفة البيت — مواكب العودة من أوروبا لمصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين وغيرهما من القادة السياسيين، وأشرتُ في روايتي «النظر إلى أسفل» إلى حشود المُتظاهرين القادمة من ناحية الجمرك (لا أذكر نقطة البداية على وجه التحديد) تلاقت سواعدهم، وانتظمت خطواتهم، وعلَتْ أصواتهم بنشيد سيد درويش: بلادي، بلادي، فداك دمي. كما شاهدتُ انسحاب القوات الإنجليزية من ثكناتها في رأس التين إلى ثكنات

مصطفى باشا (مصطفى كامل) ومنها إلى منطقة القناة. اجتذبتني حوارات أبي وأصدقائه حول صورة الحياة السياسية في العالم بعامة، والحياة السياسية في مصر بخاصة، ومثلت إضافةً مهمةً لوعي صبيٍّ يتشكل بالدهشة والأسئلة والبحث عن المعاني الصحيحة.

كان الشارع الخلفي، الواصل بين البيت وجامع علي تمراز، هادئًا في معظم أوقات اليوم، لا يصخب إلا عندما نتخذه ملعبًا للكرة (كاوتش أو شراب) أو نُجري فيه سباقات العدو (تقتلني الحسرة لأني تخلَّيتُ عن عادتي في الفوز بالمركز الأول!) ولم تكن صِلتي بالشارع مقصورة على اللعب. كنتُ أتردَّد على صديقي الصنايعي في دكان الترزي أسفل بيتنا، نتبادل القراءات، ونطرح الأسئلة، ونتناقش. وأغراني هدوء ليل الشارع على ارتكاب حماقاتٍ ساذجة، استدعيتُها في «رباعية بحري».

وفي أيام الأعياد وصلاة الجمعة، كانت الحُصُر تمتدُّ من الميدان إلى الشوارع الجانبية، والشارع الخلفي من بينها، ثم يعود — بعد أداء الصلاة — إلى هدوئه. ورغم أنه كان متصلًا بشوارع كثيرة، فإن الهدوء ظلَّ ميسمًا له حتى تركت الإسكندرية. وفي زياراتي إلى بحري، لاحظتُ أن أجيال الحفدة لم تعُد تلعب — لا أعرف السبب — في الشارع الخلفي.

مثَّلَت وقفة البيت المُتفردة بين أربعة شوارع (إسماعيل صبري ورأس التين وفرنسا والشارع الخلفي)، فضلًا عن إطلالة السطح على شِبه جزيرة بحري، مَعلمًا لا تُخطئه العين، ولا تُخطئه الملاحظات كذلك، فهو البيت الواقف بمُفرده. وظل الموقع الجميل مبعث اعتزازنا، حتى فوجئنا — ذات صباح — بالبدء في إزالة مجيرة عم عباس المجاورة (هي المجيرة التي شهِدت في رباعية بحري علاقةً جسدية بين أنسية والشيخ حماد) ووضع أساسات بناية جيدة، ما لبثت أن علَت حتى جاوزت بيتنا في ارتفاعه.

عندما أكون خارج مصر، فإن الحنين يدفعني إلى استحضار الملامح المألوفة، واللهجة، إلى الحياة فيها ومعها، تذكُّر التفصيلات الصغيرة، والتافهة. ضغطة الزِّر في اللهجات المصرية، وصوت الناي، وتلاوة محمد رفعت وأبو العينين شعيشع، وغناء أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وبدارة وعزت عوض الله، ورقصات سيد حلال عليه، ولوحات محمود سعيد، وروايات نجيب محفوظ، وقراءات فاروق شوشة في الإذاعة، والأفلام المصرية في التليفزيون. وثمَّة الإسكندرية. إنها — عندي — ليست مُطلقة، بل تتحدَّد في ذكرياتٍ شخصية وأماكن وبشَر. بالتحديد حي بحري، ناسه ومساجده وميادينه وأسواقه وشوارعه وأزقَّته وتميُّز

الحياة فيه. الإسكندرية في داخلي أينما ذهبت، وإن كنتُ أنتمي — بمشاعري وذكرياتي — إلى بحري، إلى تلك المنطقة التي تبدأ من ميدان المنشية، وتنتهي في سراي رأس التين، أو العكس. أشرتُ في «مد الموج» إلى النسائم المُحمَّلة بروائح الملح واليود والأعشاب والطحالب، تلامس أنفي في مكانٍ ما، في لحظةٍ ما، على شاطئ الأطلسي، خورفكان، شاطئ الكورنيش بمطرح، فوق تلال الجزائر، حي البوسعيد التونسي ... أستعيد الرائحة نفسها، على شاطئ الكورنيش، في المينا الشرقية، أو في الأنفوشي. يغلبني الشوق إلى ملء رئتي من هواء بحري، تصنعه تيارات من البحر الذي يُحيط بمعظم جوانبه.

وصف إدوار الخراط سكندريتي بأنها بحري، ظنِّي أن ما قاله ينطوي على الحقيقة، فإذا كنتُ أنتسِب — بالانتماء القومي — إلى الوطن العربي بتعدُّد أقطاره، وإذا كنت أنتسب — بالانتماء الوطني — إلى مصر بتعدُّد أقاليمها، فإني أنتسب إلى بحري، الموطن/الوطن الذي صار في حياتي تجسيدًا للإسكندرية.

سافرتُ إلى مدن كثيرة داخل مصر وخارجها، لكن وجداني لم يترك الإسكندرية — وبحري بخاصة — في أي وقت. أنا دائم الوجود فيه بالحنين والشوق واستعادة الذكريات والمقارنة والكتابة عن الوقائع والأماكن والشخصيات.

جغرافيًّا، قد أكون بعيدًا عن بحري بمئات، أو آلاف الكيلو مترات، لكنَّني أعيش في بحري، أسير في الشوارع والحواري والأزقة، أؤدي الصلوات في المساجد، أُذاكر في صحن أبي العباس، أشاهد الموالد، أزور الأضرحة والمقامات، وأقرأ الفاتحة، أندس وسط حلقات الذكر، أخترق زحام شارع الميدان، أقف على شاطئ البحر، أتابع عمليات صيد السنارة والطراحة والجرافة، أتردَّد على ورش القزق، أتابع تحليق الطائرات الورقية الملونة، أمد النظر إلى نهاية الأفق.

مع كثرة ما استمعت إلى صياح الديكة في مواضع من العالم، فإن ترامي الصوت ينقلني إلي بحري، بالتحديد إلى حجرة نومي في الشقة المُطلة على ثلاثة شوارع، يؤنسني صياح الديكة، وتسبيحات ما قبل صلاة الفجر، والأهازيج التي يعلو بها صوتٌ أَلِفتُه، وإن لم أعرف صاحبه!

رغم انقضاء عشرات السنين على رحيلي من بحري، فإني أصحو — في الكثير من الأيام — على جلبة الطريق في ميدان الخمس فوانيس، ورائحة البحر، وأهازيج السحر، وجلوات الصوفية، وسوق العيد، ومواكب العرائس أسفل بيتنا. تختلط الذكريات والصور القديمة. أستغرِق لحظاتٍ قبل أن أعود إلي الآني.

لباشلار مصطلح الطوبوفيليا Topophilia، ومعناه محبة المكان. ثمة علاقة خاصة تربطني بالكثير من الأماكن في بحري، أسواق وشوارع وجوامع وحدائق وأضرحة ومقامات، فضلًا عن البحر الذي يطلُّ عليه بحري من جوانب ثلاثة. وبالطبع، فإن بحري — عندي — ليس مجرد المكان، إنه النشأة والذكريات واختزان ما يتَّصِل بالحنين، ما حاولت استعادته، وتوظيفه، في كتاباتي السردية.

بحري هو مدينتي، هو المدينة التي اختزنها وجداني، يُجاور أحياء أخرى، أعبرها، لكن بحري — حتى لو ابتعدت عنه — يحيا في داخلي. لا مكان يُزاحم بحري في نفسي، هو مغاير، متفرِّد، يحمل خصائص ومقومات يصعب أن أجدها في موضع آخر.

حين أخترق الزحام في ميدان أبو العباس، أو في شوارع بحري، فإن إحساسي بالوحدة يزول، أشعر بانتمائي إلى الأمواج المُحيطة بي، أنا قطرة تذوب في مياهه.

أي روح يكمُن في بحري؟ ما الذي أُحبه فيه؟ ما الذي يَجذبني إليه؟

لعلِّي أجد في الحي امتدادًا لبيتنا المُطل على أحد شوارعه، أتبادل السلام والتحية، أتردَّد على جوامِعه ودكاكينه وساحاته وأسواقه، أعرف الكثير من ناسه، الوجوه الطارئة، أو الحديثة العهد بالإقامة. البيئة — رغم اتِّساع الحي، بل ورغم أن كثافته السكانية محدودة، ومحددة. الطبقات من الوسطي فأدنى، المِهن المتصلة بحياة البحر، في السيالة والأنفوشي ورأس التين، الصيادين وغازلي الشباك وصغار الحرفيين والتجار. ليس في بحري شخصية استثنائية، ومُعتزة بخصيصةٍ ما، ناسه عاديون، يُمارسون مِهنًا، يحفظ عائدها حياتهم، تغيب — إلى حدِّ الندرة — أمراض الانتهازية والوصولية والتقافُز فوق أكتاف الآخرين. المسافة من انحناءة الطريق إلى المينا الشرقية، وموازاته في شارع محمد كريم (التتويج)، والامتدادات حتى المنشية مِهَن تجارية وحرة، أو ينتسبون إلى الكادر الوظيفي في مراتب مختلفة، الهجرة من الحيِّ وإليه قليلة، أو أنها معدومة، فالسِّحَن تبدو مألوفة، حتى السمات المعمارية لبنايات الحي تشهد تغيرًا بطيئًا، وغير ملموس. ما عدا ميدان أبو العباس الذي تضخَّمت عمارته بزعم توسيعه، فإن البيت الذي يلحَقُه الهدم يُبنى على المساحة نفسها ببيتٍ جديد، حتى الشوارع القديمة: الموازيني والحجاري والمسافرخانة وجودة وأبو وردة وصفر باشا وفرنسا وغيرها، لا تزال على حالها. بل إن تسميات الشوارع لم تتبدَّل على ألسنة الناس: سُمِّي شارع الميدان تعبيرًا عن الزحام الذي تصنعه حركة البيع والشراء، ثم أطلقت الدولة على الشارع اسم محمود فهمي النقراشي رئيس وزراء مصر الأسبق، بعد اغتياله في ١٩٤٨م، لكن التسمية الأولى ظلَّت كما هي،

وظلَّ اسم إسماعيل صبري على الشارع الذي أُنشئ في أوائل الثلاثينيات، وكان الرجل محافظًا للمدينة، وعلى الرغم من أن الزعيم محمد كريم هو الاسم الذي يُطلَق الآن — رسميًّا — على شارع التتويج (نسبة إلى تتويج الملك فاروق ملكًا على مصر في ١٩٣٧م)، فإن التسمية القديمة هي التي يحرص عليها الناس. وشارع رأس التين لأنه يمضي إلى سراي رأس التين، والموازيني لأن جامع ولي الله على يمين الشارع في الطريق إلى أبو العباس. تحيَّرتُ في تسمية شارع فرنسا. لم أجد باعثًا لها في النوتة الصغيرة التي حدس صديقي الشاعر الراحل عبد الله أبو رواش أني ربما احتجتُ إليها في كتاباتي التي جعلت من فضاء بحري — بناياته، ميادينه، شوارعه — محورًا لها، ربما جاءت التسمية في مناسبة احتفالية، تخص فرنسا، أو أحد زعمائها. أُطلِق على الشارع — فيما بعد — اسم الشهيد كمال الدين صلاح، لكن التسمية ظلَّت — كالعادة — على حالها.

أحرص — في زياراتي إلى بحري — أن أخترق الشوارع الجانبية والأزقَّة والحارات. أُطيل التوقُّف والتأمُّل، أدرس علاقة المكان بالتاريخ السكندري، بالبشر الذين يعيشون فيه، أتأمَّل حتى ما قد يبدو هامشيًّا. العكس هو ما أفعله حين تدفعني الظروف للتردُّد على أحياء الإسكندرية الأخرى. أكتفي بالسير في الشوارع الرئيسة، لا أحاول الميل — إلا لضرورة — في الشوارع الجانبية، سَيرِي في بحري للتأمُّل واستعادة الذكريات. أما سَيري في الأحياء الأخرى فلِعَمل ما أسعى لإنجازه.

بحري — في لُغة أهل الإسكندرية — هو البلد. يُقال: أنا نازل البلد، المعني أنه سيذهب إلى بحري. هل لأنه الحي الأقدم في المدينة؟ هل لأنه الموضع الأصل قبل أن تنشأ الإسكندرية، وتتَّسِع، وتمتدَّ أحياؤها، وتأخذ صورتها الحالية؟

إذا نزلت البلد/بحري فإنك — غالبًا — سترحَل عنه وفي وجدانك بصماتٌ يصعُب أن تزول.

سيرة بحري — منذ الطفولة إلى عامِي الثاني والعشرين — هي سيرتي الذاتية.

والحق أني حين أُغادر بحري أُعاني ارتباكًا وفقدانًا للاتجاه، أسأل بحثًا عن البناية التي — ربما — علَتْ أمامي، أو الشارع الذي — ربما — سِرتُ فيه. لم أكن أجاوز بحري إلَّا نادرًا، يَصحبني أبي، أو أحد أقاربنا، أو أضع تصوُّرًا مُحددًا للشوارع التي يجِب أن أخترقها، لا أميل إلى شوارع أخرى، ولو لإرضاء الفضول.

ولأن مدرستي الابتدائية، فالثانوية، في محرم بك، فقد حفظتُ الشوارع — بإرشاد أبي — جيدًا، لا أبدِّل المسار الذي يُعيدني إلى حكاية الحمار ما بين بيت خالتي نبوية (خالة أُمي) في دمنهور، والزراعات البعيدة. تابعتُه وهو يمضي في الشوارع الفسيحة والمدقَّات والطرق الترابية وفوق الجسور الصغيرة، حتى يصل إلى الأرض التي يملكها أبناء خالتي، فيقف، نهاية المشوار.

هذا هو حالي — فيما أظن — وأنا أمضي في شارع فرنسا، إلى ميدان محمد علي، ومنه إلى شارع شريف، أميل في اتجاه ميدان محطة الإسكندرية، إلى شارع محرم بك، حتى قُرب نهايته. أخترق — يسارًا — شارع المأمون، حيث تقع في أحد الشوارع المُتفرعة منه، مدرستي الفرنسية الأميرية. المشوار نفسه كنتُ أقطعه في التوجُّه إلى مدرستي، الإسكندرية الثانوية بشارع منشة. لا أذكر أني بدَّلتُ المسار لأي سبب، اللهم إلا للإفادة من مكتبة البلدية المُلاصقة لمدرسة الإسكندرية، في أوقات الفُسَح.

حلمي الدائم — منذ أحببتُ الكتابة — أن أكتب عن الإسكندرية، عن حي بحري بخاصة.

حدثتُك في مقدمة كتابي «حكايات عن جزيرة فاروس» عن المساحة التي تبدأ بقصر رأس التين إلي ميدان المنشية، اسمها الرسمي حي الجمرك، أو قسم الجمرك، أما التسمية التي اعتاد الناس نطقها فهي: بحري. تشمل الكثير من الميادين والشوارع والحارات والأزقة، بالإضافة إلى الروحانية المُمثلة في الجوامع والزوايا وأضرحة أولياء الله ومقاماتهم والطُّرق الصوفية والموالد والأذكار، ما يصحُّ انتسابه إلى مدينة واسعة، فإنها تضمُّ العديد من شركات النقل والشركات الملاحية والمُستودعات، ويعمل غالبية أبنائها في الأنشطة المتعلقة بالميناء من نقل وتخزين واستيراد وتصدير وتفريغ، للسفن، وثمة فئات يرتبط عملها بالبحر الذي تطلُّ عليه المنطقة من ثلاث جهات، كالحمَّالين والصيادين والبحارة والعامِلين في الدائرة الجمركية، ودكاكين بيع أدوات الصيد، وتجَّار الأدوية البحرية.

البحر وصيادو السيالة وحلقة السمك وأولياء الله، حياة واحدة، عائلة واحدة. وأحيانًا، فإن الخاطر يلحُّ — حين يمرُّ الأوتوبيس أو المترو أمام محطة القاهرة — أن أُغادر مكاني وأتَّجه إلى القطار، فأسافر إلى الإسكندرية، حبيبةٌ أتوق للقائها كلما لاحت فرصة.

بحري ليس هو الحي الذي عشتُ فيه أعوام الطفولة والنشأة ومطالع الشباب. عندي هو الذكريات، هو الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة والميدان الواسع قبالة أبي العباس، قبل أن تبتلِعه العشوائية التي تعاوَن في تحقيقها محافظ سابق وعددٌ من

رجال الأعمال. بحري هو سوق العيد الذي تلاشت ملامحه بعد أن حظرت التعليمات وجودَه، وهو أبواب الجمرك المفتوحة دون تصاريح دخول، ولا قوائم ممنوعين. وهو ما استقرَّ في داخلي من تعامُلات البشر والمُعتقدات والعادات والتقاليد والعبارات والمُفردات والحواديت الصغيرة التي تركت تأثيرات في النفس، وربما تركت ندوبًا على الجسد. غاب عن بحري علماء دين وتجار وفتوات وشيوخ صيادين، هم الذين منحوا بحري زمنَه الجميل. أذكر درس المغرب للشيخ عبد الحفيظ؛ إمام جامع سيدي علي تمراز، ووقفة أم البحرية عصمت محسن في شرفة فيلَّتها المُطلة على سراي رأس التين، والشيخ أحمد صاحب الكتاب في شارع فرنسا، أمضيتُ فيه عامًا أو أكثر من طفولتي، والرشيدي بائع المشروبات، وعم أحمد الفكهاني، والطيبين بائع البسبوسة. مع ذلك، فإن بحري عندي ليس مجرد البحر والشاطئ والجوامع والميادين والشوارع والبشر. إنه كائن له قسمات وملامح وذكريات وحكايات. حتى الجدران والبيوت والنوافذ تمثل — في داخلي — ذاكرةً أحيا معها، وبها. أمام البنايات الجديدة، الأسمنت، والنوافذ الزجاجية الضيقة، والطوابق القصيرة، وغياب النقوش والزخارف والمُقرنصات — حتى لو تشوَّهت، أو تساقطت! — يغيب إحساسي بالألفة والحميمية والدفء. يتناهى رفع الأذان من موضعٍ قريب، داخل مصر وخارجها. أستعيد صورة المؤذِّن في صعوده درجات السُّلم الحلزوني لجامع علي تمراز، يستقر في وقفته على البسطة الأخيرة، الصغيرة، ويرفع الأذان. هذه عندي هي صورة المؤذن باختلاف المواضع التي يرفع فيها كلمات الأذان، يتماهى التذكُّر — التذكُّر قائم — بالحنين إلى الإسكندرية، وبحري، وجامع علي تمراز، بما لكلٍّ ذلك في نفسي من مكانة. لكثرة ما استمعتُ إلى صوت الأمواج وهي ترتطم بصخور الشاطئ في امتداد الميناء الشرقي، فقد أصبح الصوت مُلازمًا لي في رحلاتي خارج الإسكندرية. أستعيده، فيُعيدني إلى مدينتي، وإلى البحر والبلانسات وصيد الجرافة وحلقة السمك والسلسلة ومتحف الأحياء المائية وقايتباي وحاجز الأمواج في مدى الأفق.

بعيدًا عن بحري، سواء في القاهرة أو في المدن المصرية الأخرى، أو في خارج البلاد، فإني كنت أُجري ما يُشبه المقارنات بين بحري وغيره من المناطق التي قد تتَّسم بخصوصية، خصوصية بحري حافلة بالتنوُّع والخصوبة والثراء، بيئة ساحلية يختلِط فيها البحر واليابسة بحميمية مُعلنة، مفرداتها الصيادون والغزل وتجار الأسماك وتجار أدوات الصيد وعمال الميناء وعساكر السواحل وأفراد القوات البحرية والبحارة الأجانب والسياح، بالإضافة إلى المفردات الروحية المتمثلة في عشرات الجوامع والزوايا والمقامات

والأضرحة، مشهد غير مُتماثل ولا مُتكرر، يمثل — بالنسبة لي في الأقل — حافزًا للتأمُّل وتوظيف البيئة في أعمالي الروائية والقصصية.

أَلِفْتُ رائحة بحري: البحر واليود والطحالب والأعشاب والأسماك والقواقع والأصداف. أستعيد الرائحة إن ابتعدتُ عن بحري، تقتحم أنفي وكل كياني. استعدتُ الرائحة في سوق السمك بمطرح، على شاطئ الخليج، أمام ساحل الأطلسي، في شرفة فندق «باب البحر» المُطلة على كورنيش طرابلس الغرب، وأماكن أخرى كثيرة تحمل رائحة بحري، وإن كانت لا تحمِل ملامحه.

التعبير المُتوارث: من يشرب ماء النيل مرة واحدة فلا بد أن يعود إليه. أُضيف إليه: من يشمُّ هواء الإسكندرية فلن يسهُل عليه نسيانها.

أذكر أبيات مريد البرغوثي:

السمكة،
حتى وهي في شباك الصيادين،
تظلُّ تحمِل
رائحة البحر.

المثل يقول: «نحن نحمل أوطاننا في غربتنا». والحنين خاصية مؤكدة القسمات عند المصري الذي تضطرُّه الظروف إلى ترك وطنه. حنين دائم، ومُتصل. يحنُّ إلى وطنه وموطنه — المدينة، أو القرية، أو الحي الذي يحيا فيه — وإلى أهله وأصدقائه، وإلى الذكريات الصغيرة.

في قصتي القصيرة أحمس يلقي السلاح يدندن البطل — دون تدبُّر — بمطلع الأغنية:

على بلدي المحبوب ودِّيني زاد وجدي والبُعد كاويني

إنه نفس الحنين القديم الذي بلور أمنيات سنوحي في أمنية واحدة، أن يعود إلى بلاده ليموت فيها! وحتى الآن، فإني أُفضل — رغم انقضاء عشرات الأعوام على مغادرتي الإسكندرية بصورة عملية — أن تكون أعمالي تعبيرًا عن الحياة في بحري، هذا الحي الذي وُلِدتُ فيه، وأمضيتُ أعوام طفولتي وصباي وشبابي الباكر. سرتُ في شوارع وميادين

وأسواق، سبقني إلى السير فيها عبد الله النديم وسلامة حجازي وكامل الخلعي وسيد درويش وبيرم التونسي وعشرات ممن تأثروا بمظاهر الحياة المُميزة، والمتفرِّدة، في بحري، وانعكست تلك التأثيرات في إبداعاتهم.

تبقى حقيقة يجدُر بي أن أعترف بها: إذا لم أكن قد عشتُ معظم أعوام عمري في الإسكندرية/ بحري، فإن الإسكندرية قد عاشت في داخلي كل عمري.

بحري، هو المكان الذي أستعيدُه في لحظات الفقد والوحشة. كنتُ — في صباي وشبابي الباكر — أتعجَّل مغادرته. بدَت القاهرة مجالًا حقيقيًّا للفرصة التي أطلبها. وحين أقمتُ في القاهرة، صار الحنين إلى بحري هاجسي، ودافعي إلى العودة المتكررة إليه.

أحبُّ العيش في مصر الجديدة، إقامتي فيها تعود إلى ما قبل أربعين عامًا، لا أتصوَّر الإقامة في مكانٍ آخر، بي أُلفة للبشر والأماكن والأشياء. ألفتُ هذا الحي، هذا الشارع، هذا البيت، هذه الشقة، لا أفكر في الانتقال، ولو إلى مكانٍ أكثر ملاءمة. وإذا غادرتُ القاهرة، فإن الهاجس الذي يتملَّكني هو العودة إلى مكتبتي، هي خلاصة كل ما يَجتذبني إلى مصر الجديدة. مع ذلك، فإن مصر الجديدة تغيب — لا أدري لم؟ — في كتاباتي، لا أكتب عنها، ولا أُشير إليها، ناسها، شوارعها، مؤسساتها، مساجدها، كنائسها، بناياتها (الاستثناء في روايتي «ذاكرة الأشجار»). ربما البداية تُطالعني، تُناوِشني، وأنا أقود سيارتي في شوارع الحي، أو وأنا أجلس — كما اعتدتُ منذ أعوام كثيرة — جوار نافذة الأوتوبيس، أُمسك الكتاب بيد، والقلم باليد الأخرى، تشغلني القراءة، أشرد — بين فترة وأخرى — في زحام الشوارع، حتى أنتبه إلى محطة القللي (عرابي)، أعبُر الطريق إلى مبني «الجمهورية».

لأن العمل الإبداعي — كما قلتُ لك — يكتب نفسه، فإن ما أكتُبه — في سطوره الأولى — يستدعي الحياة في بحري: الشخصيات والأماكن والأحداث، ما أعرفه، وما أتصوَّره، وإن كانت الومضة في أيامي القاهرية. تنفسح الحياة في بحري بمساجدِه وشوارعه وبناياته وموالده وأذكاره وضرائحه ومقاماته، والصِّلة بين البشر واليابسة، وحلقة السمك، ومعهد الأحياء المائية، وقلعة قايتباي، وسراي رأس التين، وورش القزق، ومرسى القوارب في المينا الشرقية.

لم أكتُب في أعمالي التي عرضت للحياة في بحري عن مكانٍ لم أتردَّد عليه، ولا شخصية لم أتعرف إليها، ولا طقس لم أُمارسه، أو تابعتُ ممارسته جيدًا، مثلًا: صيد الجرَّافة والطرَّاحة والذِّكر والإنشاد الديني والجلوات ... إلخ.

لعلِّي أُضيف إلى ذلك كله حُبًّا دافقًا للمكان وأهله، وهو ما ينعكس في تلمُّس الجذور والتكوينات والقسمات والملامح والمُنمنمات الصغيرة التي تُسهم — في مجموعها — في رسم اللوحة الكلية.

ظلَّت أُمنيتي أن أقطن شقةً في وسط البلد، أقضي فيها ما تبقَّي من العمر. وسط البلد الذي أعنيه هو بحري. أنزل — في أي وقت — إلى الشوارع والأسواق والميادين والمقاهي، وكل ما ينتسِب إلى البيئة التي نشأتُ فيها. زوجتي تمتلك شقةً في العجمي، لكنَّني أضيق بها، فهي تبتعِد عن وسط البلد بالمعنى الذي أفهمه، تبتعِد عن بحري، فأنا لا أُحب الإقامة فيها. تعزلني عن الحياة التي أَلِفتُها، وإن بدَّل توالي الأعوام كثيرًا من مظاهر الحياة في بحري: الإزالة دائمًا، وتشييد بنايات جديدة، أو تحويلها إلى مشروعاتٍ تجارية، وربما تحويل الميادين الفسيحة — والمثل ميدان أبو العباس — إلى مساحاتٍ مكتظة بالدكاكين والبنايات التجارية.

واصلتُ البحث، فلم أجد ثُقب إبرة. العدد كامل، وحركة البناء توقفت لأن كل الأراضي التي تصلح للبناء قد تمَّ بناؤها بالفعل. ثم عثرتُ على شقة في عمارة لم يكتمِل بناؤها تطلُّ على سيدي علي تمراز. بدت غاية المراد من ربِّ العباد، وإن تقاسَم واجهتَها — مع الميدان — حارة صغيرة تُفضي إلى شارع محمد كريم.

صاحِب البناية في حوالي الخمسين. ينتسِب — من الخشونة الواضحة في يدَيه، ومن اختلاط الألوان في ملابسه — إلى فئة الحرفيين. تصوَّرتُ أني رأيتُه في تردُّدي — أحيانًا — على ورش سمكرة السيارات بالعطارين.

أفزَعني الرقم الذي حدَّده الرجل لامتلاك الشقة: ٣٥٠ ألف جنيه.

استعدت الرقم، فأكَّده.

لجأتُ إلى الدُّعابة: لِبنايات الميدان أو للبناية وحدَها؟

قال من بين أسنانه: لِغرفةٍ واحدة إن شئت تملُّكها!

قيل إن النظر من بعيدٍ يفتح أمام الرائي أفقًا غير محدود. ثمة المدن التي زُرتها، وأقمتُ فيها لفتراتٍ قصرت أو طالت. الحنين لا يقتصِر على الوطن أو المَوطن وحدَه. إنه — هنا — يأتي مرادفًا للإحساس بالغربة والشَّوق إلى الأهل والأصدقاء ومواطن الذكريات. الحنين يُداخلنا بعد أن نُمضي في بعض الأماكن فترات، ثم نترُكها. فأنا أحنُّ إلى الأردن وعمان

والسعودية والإمارات والجزائر وفرنسا ولبنان وتونس وإنجلترا وموريتانيا وسوريا وليبيا وألمانيا وكل البلاد التي زُرتها، وأنشأتُ فيها صداقات، وتعرفت إلى أماكن وبشر. ربما خرجت بذكريات سيئة، لكن الحنين يتحرك بالابتعاد، ولعلَّه من هنا جاء قول مستر ميلز في رواية ديكنز الصغيرة ديترويت: «إن المرء دائمًا يُسامح المكان متي ابتعد عنه».

نحن نحيا المكان — كتجربة — عندما يُذكِّرنا بأماكِننا القديمة، الأليفة، أو يجعلنا نهرب منه إلى أماكننا القديمة، الأليفة. يضعنا في إطار الذكريات. وهو ما يُسمِّيه باشلار «تعليق» القراءة، فالقارئ يتذكر — من خلال العمل الإبداعي — أمكِنَته الخاصة، والحميمة.

في زياراتي المُتقاربة، الأولى، إلى بحري، وإلى الإسكندرية بعامة، كان يلفُّني شعور بالانتماء، أو بالحميمية، وربما بالامتلاك لكل ما حولي، هذا المكان يخصُّني، وأنا أُحبه، هو امتداد لبيتنا في شارع إسماعيل صبري، أعرف ميادينه وساحاته وشوارعه وأزقته وبناياته وجوامعه وزواياه ومقاهيه، لا أُخطئ ملامحها. أعرف الكثير من ملامح البشر أيضًا. تباعدَت زياراتي إلى بحري، وإلى الإسكندرية جميعًا. فيما بعدُ حدثت تبدُّلات وتغيُّرات في طبيعة المكان، لكن الصورة الماثلة في ذهني — ووجداني — ظلَّت قائمة لا يعتَورها تبديل، وهي الصورة التي حققت بطولة المكان — التعبير للنقَّاد — في أعمالي الإبداعية. أتذكر المرأة اللحيمة المُطلة من نافذة الطابق الأول بشارع الحجاري، المُتصوِّفة اللائِذين بجدران جامع أبو العباس، مرسى القوارب في المينا الشرقية، الطائرات الورقية الملوَّنة فوق خليج الأنفوشي، العجوز المُستلقي تحت العربة الصندوق على ناصية شارع الشوربجي، مبنى مقامات الأولياء المُفضي إلى السيالة، فلوكة مقلوبة فوق رمال الأنفوشي، إيقاع صحن العطارة في سوق الترك، صيادي السنارة فوق مكعبات الأسمنت ما بين السلسلة وقايتباي، بائع الصحف يُرتب الجرائد والمجلَّات على رصيف شارع فرنسا، لصق صيدلية جاليتي، الطفل — داخل الترينون — ينفث أنفاسه بخارًا في الواجهة الزجاجية المُغلقة، نداء الشحَّاذ الضرير في الموازيني: قصدتُ باب الكريم، درويش يفقد الوعي في استغراق الذِّكر، شِباك الصيد المُلقاة — لتجفَّ — على السور الحجري، تناثر أضواء البلانسات في ظلمة البحر، الرائحة النفَّاذة المُترامِية من حلقة السمك، انتشار بحارة السفن الأجنبية — جماعات — في شوارع المدينة. في الليل، يتحوَّل البحر — بعناق الظلمة — إلى كائنٍ غامض، تختفي الأمواج والآفاق، تخفُّ التأثيرات بأضواء البلانسات المُتناثرة في

المدى، إذا انطبقت الظلمة تمامًا، فإن الرؤية تغيب، وتحلُّ الرهبة، ليس ما يشي بالحياة سوى ارتطام مدِّ الموج بصخور الشاطئ، وهدير انسحابها — بالجزْر — في توالٍ رتيب.

حول جوامع الحي ومساجده وزواياه وأضرحته ومقاماته، تدور حياة أبناء بحري، يبيعون، يشترون، يعودون من رحلات الصيد، يؤدُّون الصلوات، يُقيمون حلقات الذكر والموالد، يُحققون العلاقة المميزة بين البحر واليابسة، وبملامسة الأمواج للحي في إطار شِبه الجزيرة.

قبل أن أُغادر الإسكندرية، كنتُ أحرص على تأمُّل الأماكن التي أُحبها. البحر — من فوق سطح البيت — يُحيط ببحري من جوانب ثلاثة: المينا الشرقية بصيادي الجرافة والطراحة والسنارة، وتناثر البلانسات والقوارب داخل نصف الدائرة الهائلة من السلسلة إلى قلعة قايتباي، ومرسى القوارب في أقصى اليسار. المينا الغربية وما تشغي به من حياة، صنعها عشرات الألوف من البحَّارة والعمَّال والبواخر الضخمة والأرصفة والمخازن والحاويات والصافرات المُتشابكة. الأنفوشي بزحف ورش القزق على رماله في ما يلي مركز الشباب إلى قُرب سراي رأس التين. أذكر وصف أبي، وهو يشير إلى الساحة الخالية أمام سراي رأس التين، وما يتناثر فيها من بيوت، وصورتها القديمة حين كانت تضمُّ عششًا من الصفيح والأسمنت، مُغطاة بالخيش، وترعى أمامها الماعز، ويسرح البط والإوز والدجاج. كانت — في رأيه — صورة قبيحة، تُناقض فخامة السراي، وضرورة انسحابها على المنطقة المُحيطة بها. مشاهد كثيرة، أعيد تأمُّلها، أحاول اختزانها في الذاكرة، أعد نفسي باستعادتها حين أحاول الكتابة عن بحري. ذلك ما حاولته في رباعية بحري، والصهبة، وقاضي البهار ينزل البحر، والنظر إلى أسفل، ومد الموج، ونجم وحيد في الأفق، وحكايات الفصول الأربعة، ومواسم للحنين، وزوينة، والمينا الشرقية، والخليج، وزمان الوصل، والشاطئ الآخر، وأهل البحر، والبحر أمامها. بالإضافة إلى العديد من المجموعات القصصية.

ولعل تعدُّد الأعمال التي أكتبها عن البحر، مَبعثه تعدُّد الدلالات التي يَهبُها البحر، إنه — على حدِّ تعبير الدوس هكسلي — ذلك المتجدِّد دومًا.

إن مجرد الوقفة على شاطئ «المينا الشرقية»، والنظر إلى أُفق ما بعد السلسلة وقلعة قايتباي، والبلانسات المتناثرة، وحركة الأمواج بين السكون والثورة، والسماء المتقلبة، والطائرات الورقية، وصيحات أسراب طيور النورس، وصيادي السنارة يختبرون الصبر فوق المصدَّات الأسمنتية ... ذلك كله يهبُ النفس المتأمِّلة فيضًا لا ينتهي من المشاعر، والمَيل إلى التعبير.

ما الوطن؟ هل هو حيث الجذور والأصول، أو حيث أعيش؟ هل هو الأهل الذين تسافر، وتعود إليهم؟ هل هو الطفولة، وحكايات الجدَّات، واللعب في الساحات والشوارع الخلفية؟

طُرِح السؤال نفسه في العديد مما كتبت. الحنين إلى الوطن شاغل الأسرة اليونانية في الشاطئ الآخر، والصحفي رءوف العشري في الخليج، والشاب الزنجباري في زوينة، وهاشم رمضان السعدني في زمان الوصل، ونورا والطبيب الأرمني في صيد العصاري، وغيرهم، تبدَّلت آراؤهم ومواقفهم وتصرُّفاتهم — سلبًا وإيجابًا — من خلال الحنين إلى الوطن. بل إن الحنين قد يجاوز استعادة المكان ذي الذكريات، إلى المكان الذي نُدرك انتماءنا إليه، بحصيلتنا المعرفية، وروايات الأهل والمعارف.

خُيِّرَت كالبسو الفتى يولسيس بين البقاء معها في جزيرة الخلود، وبين عودته إلى أرضه حيث لا بد أن يموت يومًا. ورفض يولسيس الخلود، واختار العودة إلى الأرض، إلى الوطن. وكان هذا هو اختيار هاشم السعدني في زمان الوصل. ولعلَّ ذلك هو ما واجهَهُ الراوي وياسمين في الشاطئ الآخر، وما واجهه الراوي وزوينة في «زوينة»، وما واجهه صلاح ونورا في «صيد العصاري». يفرض القرار نفسه في مواجهة السؤال الصعب: أيُّنا يتنازل عن وطنه ليُقيم في وطن الآخر؟

لكي يشعُر المرء بالانتماء إلى الوطن، لكي يشعُر بأنه واحد من مواطنيه، فلا بد أن يحيا في أرضه، ويُعايش مشكلاته وطموحاته. أوافق ميلان كونديرا في أن الكاتب — تحديدًا — ليس بمقدوره أن يحيا في أي مكانٍ إلَّا في وطنه.

والغربة لا تقتصر على البُعد عن الوطن، فقد أُعاني الغربة وأنا أحيا في وطني. بل إن الظاهرة المقابلة هي إيثار البعض للفرار من الوطن، والحياة خارجه. ولا يخلو من دلالة قول الكولونيل لورنس — وهو الذي أمضى أعوامًا طويلة في الصحراء العربية — إنه لم يُصبح إنجليزيًّا حتى بعد عودته إلى بلاده.

ثمة ما ننساه تمامًا، كأنه لم يكن. قد يختفي المكان، لكن صورته تظلُّ في الذاكرة: التفصيلات والمنمنمات والرائحة. حتى الرائحة تظلُّ قريبة من أنوفنا، يستعيدها بالوقوف في الموضع نفسه، أو في موضعٍ مُشابه.

أشرتُ في مقدمة كتابي «مصر المكان» إلى المعني الخاص الذي لا أفهمه، وأنا أتأمَّل سقوط أشعة الشمس على المسقط السُّفلي لسينما ديانا. مجرد التحديق في المكان ينقلني إلى عوالم متشابكة، وغريبة، وموحية. الأمر نفسه هو ما كنتُ أشعر به في وقفتي وراء

شرفة شقة الطابق الثالث في البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبري. نظراتي تتَّجِه إلى السماء، والبنايات المقابلة، والتقاءات الشوارع، والدكاكين، وحركة الطريق الهادئة نسبيًّا (أخترق الشارع هذه الأيام، فأتحسَّر على زمنٍ مضي. أنت لا تستطيع — في قلب الشارع — إلا أن تكون موجةً يُحركها توالي الموجات!) وأُردِّد أغنيتي عبد الوهاب: الجندول، وكليوباترة، تصدران عن قهوة فاروق، تنتقلان إلى الأذن دون شوائب. تتوقَّف النظرات طويلًا على الشرفة الصغيرة بين شقَّتَي الطابق الأول، مجرد واجهة بلا منفذٍ من أي نوع، ومساحتها من الداخل لا تبلُغ المتر. يتقاسم تأمُّلي لها شرود، أتمنى لو يُتاح لي الجلوس داخلها، دون أن يشغلني السؤال: ثم ماذا؟

لم يكن يراها، ولا يشعر بها أي أحد، كأنها سِرِّي الخاص، أجلس — بالتخيل — فيها، أطلُّ على الشارع، أرنو إلى نوافذ البيوت المقابلة، ربما أسندتُ رأسي إلى الجدار المصمت، وانشغلت بقراءة كتاب.

تصوَّرتُ الشرفة مكانًا مناسبًا لعرض البضاعة التي أضعها تحت السرير، يشتريها — بالأجل الذي لا يأتي! — إخوتي وأقاربي. لم تكن المشكلة في استحالة أن أجلس داخل الشرفة الصغيرة، ولكن في استحالة صعود الزبائن إليها، فهي مُعلقة بين شقتَين، ولا سَلالِم لها.

قد نُحب المكان بلا سبب، وربما نكرهه بلا سببٍ أيضًا. الشعور نفسه يتملَّكني عندما ألتقي شخصًا للمرة الأولى. الانطباع الأول يتحوَّل — بالأخذ والرد والتعامُل — إلى يقين، أو يبوخ الشعور لتصرُّفاتٍ سلبية كانت خافية.

لم تُفارقني الشرفة الحجرية طيلة ابتعادي عن الإسكندرية، فإذا عدتُ إلى المدينة، توقفت — كالعادة — أمام بناية الطفولة والنشأة. أكثر تأمُّلي للشرفة بمُقرنصاتها وزينتها الجصية.

حاولت أن تكون العلاقة بين الشرفة الصغيرة وبيني قوامًا لعملٍ ما، لكن المحاولة ظلت — على حالها — مجرد خاطرة لا أبوح بها.

سِرْتُ في ما لا حصر له من الشوارع والميادين والحواري والأزقة والساحات والقاعات والردهات والغُرف والممرات الضيقة. يملؤني شعور بالحنين إلى مكانٍ لا أتبيَّنه، هو أشبَهُ بالمجهول الذي تغيب ملامحه. حين عدتُ إلى الإسكندرية أدركتُ أنها هي المكان الذي يتَّجِه

حنيني إليه، ميادينها، مساجدها، شوارعها، أحياؤها، بناياتها، قعدات الناس في الحدائق، وعلى الشاطئ في امتداد الساحل.

الإحساس بالسكندرية (سكندريتي هي بحري) شعور يتملك كل أبناء المدينة، شعور قوي، مسيطر، قد يفرض الجهارة والتقريرية، ويفرض من المُبالغات والأخيلة والتصوُّرات ما قد تغيب عنه الحقيقة أحيانًا.

أحبُّ بحري، لا لأنه الحي الذي وُلِدتُ فيه، ونشأت، وإنما لأن الناس الذين أُحبهم يعيشون فيه (لم أكن أتردَّد — في أعوام الصبا — في النزول إلى الطريق بالجلباب أو البيجامة، وهو ما لم أفعله، في العمر نفسه، أوقات زيارتي لبيت عمَّتي بالمنيرة). يؤنِسني زحام الأسواق، وتلاصُق الأكتاف، ونداءات الباعة، وتلاغُط المساومات، والفصال، وأصوات الطيور داخل الأقفاص، ورائحة الكباب والفلافل، وصيادو السنارة والطراحة والجرافة وطبالو السمك في واجهة الدكاكين، ومرسى القوارب في يسار المينا الشرقية، ورفع الأذان (كم شاهدت — من النافذة الخلفية المُطلة على جامع علي تمراز — مؤذِّن الجامع وهو يصعد درجات السُّلم الحلزوني إلى أعلى المئذنة. يسند جانب وجهه إلى راحته، ويعلو صوته مُؤذِّنًا للصلاة)، وتصاعد الأهازيج والأدعية من مئذنة أبي العباس، ودروس المغرب في صحن علي تمراز، ومكتبة حمادة النن، وصافرات البواخر في المينا الغربية، وورش «القزق»، وحلقات الذِّكر على رصيف البوصيري، والموالد، والجلوات، وخيام الطرق الصوفية، والمجاذيب اللائذين بِجدران المساجد، وباعة المصاحف والأوراد والكتب الدينية والمسابح في ميدان الأئمة، وتناهي آيات القرآن والأغنيات من داخل المقاهي، والبخار المُتصاعد من أكواب الشاي، والحاوي، ونافخ النار، وألعاب البلي والنحلة والدوم. حتى العبارات المؤنِّبة والشتائم والمجاذيب والمُتسولين. ولعلِّي أذكر ما نقله بيرم التونسي عن عالِمٍ إنجليزي — لم يُسمِّه — إن أبناء بحري — في القرن التاسع عشر — هم أرذل الناس على وجه الأرض. وفسَّر التونسي معنى الرذالة بمحاولات الأولاد إيذاء الغرباء عن الحي، وهو تصرف يحدُث في كل الأحياء الشعبية، وفي كلِّ مدن العالَم.

تُؤاخِذني ملاحظاتٌ على اقتصار ما أكتب على بحري، لا أتحرك — إلا قليلًا — بعيدًا عنه، إلى أحياء أخرى، في الإسكندرية، أو إلى فضاءات أخرى في مصر والعالم. أنا لا أتعمَّد اختيار بحري موضعًا لكتاباتي، لكنه هو الذي يجعل نفسه سيدًا على هذه الكتابات: البحر والشوارع والميادين والأسواق والبنايات والجوامع والزوايا والأضرحة والمقامات والحدائق والمقاهي والقزق وحلقة السمك وقلعة قايتباي ومعهد الأحياء المائية ومرسى

القوارب وصيد العصاري وسراي رأس التين، وغيرها من القسمات التي تُشكل الشخصية المُميزة لبحري.

الجمرك هي التسمية الإدارية لبحري. اسم بحري يُطلَق على الحي جميعًا. غربال وكرموز والقباري والورديان وغيط العنب، أحياء أو شياخات مُثبَتة في الأوراق الرسمية، بينما تخلو تلك الأوراق من تسمية بحري. إنه حي الجمرك، يتبعه العديد من الشياخات التي تخلو من تسمية بحري. يقول ابن محرم بك، أو باكوس، أو كوم الدكة، أنا نازل بحري، وأحيانًا يُقال: أنا نازل البلد، والمعنى هو ذلك الحي ذو الكيلو متر المُربع، بما يحويه من خصائص ومقومات.

بحري ليس مجرد حيٍّ يضمُّ نوعيات متمايزة من البشر، ولا أنماط حياة قد تختلف عما يحياه بشَر آخرون، لكنه يُمثل عالمًا صغيرًا، فضاء يمتزج فيه الواقع والخيال بما يَهَبُ خصوصية وتفردًا .

بحري هو أقرب أحياء الإسكندرية إلى نفسي، لاعتبارات عاطفية وفنية. أنا أدين له بمراحل الطفولة والنشأة والشباب الباكر، وأدين له بالملامح التي تركت تأثيراتها في الذاكرة والوجدان، وكانت هي الإطار الذي تحرَّكت فيه شخصيات وأحداث أعمالي الإبداعية.

أنا أعرف المكان جيدًا. ظنِّي أنه يعرفني جيدًا كذلك. هذه المدينة، الحي، الميادين، الشوارع، الحارات، الجوامع، البيوت، المقاهي، الدكاكين، الحدائق، الساحات ... ذلك كله أنتمي له، وينتمي لي، هو الوطن، البيت، الأسرة، الصداقة.

أتنقَّل بين المُدن ومخيلتي تُلازِم العيش في بحري. أحرص على النزول إلى الحي — في فترات متقاربة — لمجرد أن أشمَّ الرائحة التي تفرض مُغايرتها، مهما تعدَّدت الفضاءات التي أتنقَّل بينها، أُمنِّي النفس بكتابات عن البحر الذي أُحبه. أُقيم في القاهرة منذ بداية الستينيات، لكنني أحرص — في كل زيارةٍ لي إلى الإسكندرية — أن أجلس إلى الصيادين في البلانسات، داخل حلقة السمك، على رمال قزق الأنفوشي ومقاهي بحري، حياتهم في الأمواج والشباك والعواصف والنوَّات والخطر، أمضي إلى شارع إسماعيل صبري، أُطيل الوقوف أمام البيت رقم ٥٤، أرنو إلى الطابق الثالث، أستعيدُ ما هو ثابت في الذاكرة، وما أَدرَكَه الشحوب. أعرف أن محمد كريم وعبد الله النديم وعبد الله دراز وسيد درويش وبيرم التونسي وأم البحرية وسلامة حجازي ومحمود سعيد وعبد الرحمن الرافعي ومحمود كامل الخلعي ومحمد محمد حسين ومحمد زكي العشماوي وحسين بيكار وغيرهم، ساروا

في الشوارع نفسها التي أسير فيها، لا أعرف الجوامع التي تردَّدوا عليها، ولا أين كانوا يجلسون، ولا أين كانوا يلتقون بالناس، ولا الأماكن التي تحمِل تأثيراتهم، لكنني أكاد أشمُّ رائحة وجودهم في جولاتي التي لا تنتهي داخل بحري. أخترق الشوارع والحارات والأزقة، أطلُّ على شاطئ البحر والمقاهي والخرائب والساحات. أتخيَّل ما كان.

أذكر أني سألت أبي: لماذا سُمِّي حيُّنا بحري؟

قال أبي: لأنه يطلُّ على الناحية البحرية.

– أظن أن التسمية من البحر.

– الإسكندرية كلها على البحر، لماذا التسمية على هذا الحي وحده؟!

إذا كانت التسمية لأن الحي يقع بحري الإسكندرية، أو لأن مصدر بحري هو البحر. فإن بحري — كما قلت لك — شِبه جزيرة، في شِبه جزيرة الإسكندرية، بيئة خاصة، ومُتفردة، دُنياها البحر، المِهن والمُعتقدات والعادات والتقاليد، سلوكيات الحياة بعامة.

معظم الأُسَر في بحري على صِلة بالبحر، سواء بالعمل فيه، أو الحياة إلى جانبه، أو مشاهدته دومًا.

بدأت السيَّالة — على سبيل المثال — بثلاثِ عائلات، مارست مِهنًا مُتصلة بالصيد، وحتي الآن فإن شياختَي الصيادين والسيَّالة هما موطن صائدي الأسماك في المدينة.

قد يبين التشابُه بين البحر والصحراء في الآفاق اللانهائية، سواء أمام الواقف، أو الجالس على شاطئ البحر، أو حول راكب الباخرة في انطلاقها وسط الأمواج، لكن الاختلاف ما بين الحركة والسكون، الصخب والهمس، التوقُّع والملل، المخلوقات التي يعتمد المرء على ما تَهَبُه من تواصُل الحياة، والمخلوقات التي لا تَعني شيئًا، أو تترصَّد بالأذي.

كانت أول مرة أركب فيها البحر، لَمَّا أقلَّتني — وصديقي عادل الصبروتي — فلوكة صغيرة — للنزهة — من الرصيف الأمامي لباب نمرة واحد، حتى رصيف باب نمرة ستة، ثم العودة. اختُصرت الأبواب من اثنَين إلى خمسة، لم نُحاول مشاهدتها، ولا تَبيُّن ما إذا كانت مفتوحةً أم مغلقة، تأذن بالحركة والدخول والخروج. الشعور بالدهشة تغلَّب على ما عداه، والفلوكة تكاد تُلاصِق بواخر البوستة الخديوية الهائلة (هذه البواخر الضخمة، الراسية على الرصيف، ستُبحر إلى أماكن أخرى، إلى أرصفةٍ أخرى، في موانٍ أخرى، في مدن بعيدة)، وأصابعنا تُلامِس بُقَع الزيت فوق المياه الساكنة، ومن حولنا الفلايك والمُعدات والمياه المائلة إلى البُنيِّ بتأثير الزيوت المُتسرِّبة من البواخر والأرصفة والرافعات، وتلاحق صافرات السفن الداخلة من البوغاز، والخارجة منه، والطيور المُتباينة الأشكال والألوان

في تقافُزها على الساكن والمُتحرك، تهبط فتكاد تلامِسنا، والصيحات والنداءات البعيدة، يمتصُّ الفراغ رجْع صداها فلا تَبين مفرداتها. غمرَني شعور بالسعادة وأنا أعبر هذه المسافة القصيرة (تكرَّرت النزهة!) كأني في حلمٍ جميل، أو أني في الجنة.

في داخلي حنين إلى دُنيا لم تعُد موجودة، دنيا الموالد والأذكار والجلوات وسوق العيد وحفلات الزفاف والختان والخيام والبيارق والأعلام والدفوف والطبول والأدعية والأناشيد والأهازيج. غابت تلك الدُّنيا في غابات الأسمنت التي تلاصقت، حتى في ميدان أبو العباس الذي لم يبقَ منه سوى الاسم.

إسكندريتي ليست البنايات الضخمة على الكورنيش، ولا في الميادين والشوارع الفسيحة. إنها البيوت الصغيرة، المُتلاصقة، والشوارع الضيقة، المتقاطعة، تتراكم فيها مياه الأمطار، تختلط بالتراب، فتصنع ما يُشبه كومات الطين، تعلو فتهبط أبواب البيوت تحت مستوى الطريق. وثمة القهاوي والغُرَز والأضرحة والزوايا، ومدرسة البوصيري الأوَّلية، وروضة مصر الفتاة، وكتَّاب الشيخ أحمد، والمذاكرة في صحن أبو العباس، وقلعة قايتباي، والبيت المهجور بشارع سيدي داود، أُهرول أمامه لتصوُّر أن الأشباح تسكُنه، ونادي مدرسة إبراهيم الأول، وخُطَب الشيخ عبد الحفيظ، وتياترو المسيري، وفرقة فوزي منيب، وحديقة سراي رأس التين، وجياد الملك في جولاتها الصباحية، والمظاهرات الصاخبة لا أعرف من أين جاءت، ولا إلى أين تنتهي، تهتف بسقوط الملك وزعماء الأقلية، وبحياة النحاس، وصيد العصاري، وحلقة السمك ورائحة الزفارة والعطن وأريج البخور والكتاتيب والصوفية والموالد وحلقات الذكر والأهازيج، والوقفة أسفل بواخر البوستة الخديوية، ومباريات الكرة في الأراضي الخلاء، وقهوة فاروق، وحلواني الطيبين، وسباق البنز والطائرات الورقية والجبب والقفاطين وملاءات اللف.

إذا كان قد خطر لي — أحيانًا — أن أدخل البناية رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبري، أصعد إلى شقة الطابق الثالث المجاورة للسُّلَّم، أستعيد ملامح وذكريات، فإن الخاطر نفسه راوَدَني في أن أدخل واحدةً من البنايات المواجهة للميناء الشرقية، أطلُّ من نافذةٍ على أفق البحر. المُحيط الجغرافي — على حدِّ تعبير إيزابيل الليندي — هو الذي يُحدِّد شخصية الإنسان. لعلَّ البحر في مقدمة ما أفدتُ من تأثيره، ليس البحر في إطلاقه، وإنما أفق البحر، حَضُّه على التأمُّل بما لا يَحضرني في موضعٍ آخر.

حلمي الذي لا يتبدَّل — منذ تركت الإسكندرية، وفرضَتِ الظروف أن تُخلِي أسرتي شقة إسماعيل صبري — أن أستأجِر شقةً لها نافذة تطلُّ على البحر مباشرة، على الميناء

الشرقية بخاصة، أتأمَّل امتدادات الأفق والأمواج والبلانسات والقوارب وصيادي الجرَّافة والطرَّاحة وصيادي السنارة والجالِسين على الكورنيش.

ثمة شارعان يفصلان بين شقتِنا في شارع إسماعيل صبري وشاطئ البحر. الشقة التي تمنيتُها هي التي صارت شقةً للسيدة نجاة في روايتي «البحر أمامها».

سأكون مُمتنًّا لو أُتيح لي — وأنا أتهيَّأ للمجهول — أن أقرأ سورة الرحمن في جلستي أمام البحر، مثلما فعل عماد حمدي في الفيلم المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ «ميرامار»: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * ... تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»﴾

ربما لو أني لم أترُك بحري، ما لاحظت الاختفاء، التلاشي، الذي ابتلع الكثير من البنايات والشوارع والميادين. حتى الميدان الأشهر الذي يطل عليه جامع السلطان، تبدَّلت هيئته، فقد توسَّطه مبنًى هائل، تحوَّلت أطراف الميدان من حوله إلى شوارع صغيرة، ضيقة، واتصلت — بالكاد — بما كان قائمًا من الشوارع الجانبية.

أقول: ربما لو أني لم أترُك بحري، وأعود إليه، على فتراتٍ متباعدة، ما لاحظتُ ذلك التبدُّل في قسمات الحي.

أنا أتبيَّن — في كل عودةٍ إلى بحري — ما لم أكن لاحظتُه من قبل.

وربما لم أكُن أكتب عن بحري كل هذه الصفحات، بكلِّ هذا الحُب، لو أني ظللتُ في الحي، لم أبتعِد عنه. الابتعاد يتولَّد عنه الذكريات والشوق والحنين وغيرها من المشاعر التي تستفزُّ المُبدع في داخلي. الصور التي أُشاهدها وأنا أجول في شوارع بحري وأزقَّته، تختلف تمامًا عن الصور التي أستعيدُها وأنا في مكتبي.

كيف يحيا سكان المدن والقرى التي لا تطلُّ على البحر، دون هذا العالَم الحافل بالمُغايرة والسحر؟!

يا أولياء الله ... مدد!

وُلِدتُ في بيتٍ يطلُّ على جامع. مفردات نشأتي: رفع الأذان من علي تمراز، ترامِي التسابيح من أبي العباس، تواشيح رمضان، الجلوات المارَّة أمام بيتنا، الموالد في الميادين، مواكب الطرق الصوفية ما بين ميدان الأئمة إلى جامع القائد إبراهيم، حلقات الذِّكر على رصيف البوصيري، خُطَب الشيخ عبد الحفيظ، إمام علي تمراز، صلاة الجمعة والعيدَين في ميدان الخمس فوانيس، معهد المسافرخانة الديني، سوق العيد، درس المغرب، المذاكرة في صحن جامع قطب الإسكندرية، دوران عربات العرائس في ساحة السلطان، مقامات الأولياء، وأضرحتهم، والزوايا، والمزارات ...

أذكُر أني كتبتُ عن رؤيتي لمؤذِّن جامع علي تمراز، وهو يصعد السُّلم المعدني، الحلزوني، ينظر من توالي الكوات بعلوٍّ المئذنة، ويلتقِط أنفاسه، حتى يبلُغ البسطة الصغيرة أعلى المئذنة. يعتدِل في وقفته، ويُحيط وجهه براحتيه، ويرفع الأذان. مشهد يتكرَّر خمس مرات في اليوم، وإن كانت رؤيتي له بالمُصادفة، عندما أكون في الحجرة المُطلَّة على الشارع الخلفي، أو في المطبخ المُلاصِق لها.

لتكرُّر المشهد، فقد صرتُ أتوقَّع التصرُّف التالي، منذ يطأ المؤذن بقدمه على أول السُّلَّم حتى يبلغ درجته الأخيرة، ويأخذ وضع التأهُّب لرفع الأذان.

ومع أن ساعة الحائط البندولية كانت تتوسَّط صالة الشقة، فإن أبي كان يتعرَّف إلى الوقت من أذان الصلوات الخمس. حتى مواعيد نزوله إلى قهوة فاروق للجلوس إلى أصدقائه، جعلَه ما بين أذان المغرب والعشاء. في موعد أذان المغرب يرتدي ثياب الخروج ثانية، ربما بعد دقائق من عودته إلى البيت، يظلُّ في القهوة حتى يتناهى أذان العشاء، فيستأذن في العودة إلى البيت، وكان أذان العصر يوقِظه من نوم القيلولة، فيتهيَّأ للتوجُّه إلى عمل بعد الظهر.

ثبت ذلك كله في ذاكرتي، صار جزءًا من تكويني المَعرفي والوجداني، نبعًا ألجأ إليه في كتاباتي.

أُطيل الوقوف على الرصيف الفاصل بين ميدان السيدة زينب ومقام رئيسة الديوان. أميل إلى الشوارع والحارات المحيطة بالمكان: شارع السد والناصرية ودرب الجماميز والدرب الجديد والسباعين وشارع قدري وبركة الفيل وحارة السقايين والمدبح وزينهم وقلعة الكبش وشارع الجاولي والصليبية وشارع خيرت وأبو الريش. عبق الروحية العطرة يَسري في الأمكنة جميعًا، كل المُقيمين من محاسيب رئيسة الديوان، يتمسَّحون قربها، ويتذكَّرون مآثِرها، يحملون الأشاير والطبول والزمور والأعلام والكاسات، يتلون القرآن، ويقرءون البخاري، والأذكار.

لا أذكر المناسبة التي أشرتُ فيها إلى الجوامع المتقارِبة في بحري، بين الجامع والآخر زاوية أو ضريح أو مقام، كأنما الحي قد جُعِل للروحانية، أو أن الروحانية قد جُعلت له، لكن المعني — في ظنِّي — صحيح تمامًا. عشتُ في أكثر من مدينة، وزرتُ مدنًا في داخل مصر وخارجها، لم أرَ مكانًا يضمُّ هذا العدد من أولياء الله: المرسي أبو العباس، البوصيري، ياقوت العرش، نصر الدين، كظمان، الست رقية، عبد الرحمن بن هرمز، علي تمراز ... وأعتذر للأسماء التي ربما نسيتُها.

الولي العالي المكانة هو قطب، والقطب — غالبًا — تتبَعُه طريقة، لها أوتادُها ونقباؤها ومريدوها، ولها أعلامُها وشاراتها وأورادها. وإذا كان الأولياء في بحري كُثر، فإن الأولياء الأقطاب — مع بعض التجاوز — لا يبلغون العشرة. حدَّثني نجيب محفوظ — ذات يوم — عن الفتوات ومُساعِديهم، الفتوة هو البطل الذي يُوجِّه الضربات، بينما المُساعدون يتلقَّون الضربات التي تُوجَّهُ إليه.

طالعتُ اسم قاضي البهار — لأول مرة — في أوراق أبي. عرفتُ أنه اسمٌ جدُّ قديم لعائلتنا، وتُرِك وقفًا يحصل الورثة منه على مَبالغ صغيرة قبل أن يُحَلَّ نهائيًّا، وتتحوَّل المبالِغ الصغيرة إلى ما يُحقِّق الثراء لكلِّ أبناء العائلة.

حدثني أبي عن ذلك الجد — قاضي البهار — الذي قَدِم من المغرب، فاختِير قاضيًا للبهار، مثلما اختير ابن خلدون قاضيًا، واختير علماء آخرون لِمهنٍ مختلفة، تنتسِب إلى زمانها، وإن كان أولياء الله وأقطاب الطرُق الصوفية هم الأعمق تأثُرًا حتى الآن في البلاد المصرية.

شغلتني التسميةُ عمَّا عداها، كأنها تنتسِب إلى عوالم ألف ليلة وليلة، وحكايات التراث العربي، وجعلتُ الاسم بالفعل — فيما بعدُ — عنوانًا روائيًّا، وتحوَّل انشغالي في أثناء ذلك إلى محاولة قراءة تاريخ علماء المغرب في مدن مصر: متي قدموا؟ وكيف؟ ولماذا اختاروا الإقامة في هذه المدينة، أو تلك؟ وهل كانوا جميعًا من المتصوِّفة، أو أنهم وجدوا في الحقبة المصرية ما يُغريهم بالبقاء؟

وأذكر أني تناولتُ في كتابي «حكايات عن جزيرة فاروس» تاريخ العلاقات المغربية المصرية، من خلال هجرات العلماء المغاربة إلى بلادنا.

إذا كان لبحري موقعه المُتميز، فهو يتصل بالبحر من جهاتٍ ثلاث، شِبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية، فإن الروحانية سِمة مهمة في فضاء الحي، عشرات الجوامع والأضرحة والمقامات والمزارات التي لا تُطالعك — ربما — في المساحة نفسها في موضعٍ آخر.

أُفسر الأمر بأنه يعود إلى فترة ازدهار دولة الأندلس الإسلامية، عشرات العلماء والنسَّاك والزهَّاد قدموا إلى الإسكندرية من بلاد المغرب، يسعَون إلى أداء فريضة الحج، يستخدمون الدواب، أو يسيرون على أقدامهم. تُطالعهم الإسكندرية فيُزمعون الإقامة فيها. يلقى ترحيبًا من أهلها، ينسِبون إلى أقواله وتصرُّفاته كرامات، يُصرون أن يُقيم بينهم، في حياته، وبعد الممات. تلك هي الحكاية التي تكرَّرت في سِيَر أبو الحسن الشاذلي والمُرسى أبو العباس والعديد من أولياء الله، تصوَّروا الإسكندرية محطة في طريقهم إلى البيت الحرام، لكن الخصائص المُميزة للمدينة وأهلها، دفعتهم إلى الإقامة فيها بعد أداء فريضة الحج. ثمة من أخلص للدعوة الدينية، ومن أنشأ طريقةً صوفية، تضخَّمت أعداد مُريدِيها — كما هو الحال في الطريقة الشاذلية ذات القطب الأكبر والأحزاب والأوراد وعشرات الألوف من المُريدين — وتوزَّعت في أماكن متقاربة: مقامات وأضرحة يقصدها الناس، يلتمِسون البركة والشفاعة والمدَد.

المظاهر الدينية ملمح يُضاف إلى الروحانية التي اكتسبها بحري بتعدُّد مساجده وأوليائه. الموالد والجلوات وحلقات الذكر وسُرادقات الإنشاد الديني وغيرها مما يُشكِّل تكوينًا في ثقافة أبناء الحي، بصرف النظر عن المستويات المعرفية والاجتماعية.

موكب العروسين لا بد أن يستأذن أبو العباس — أو السلطان كما يُسمِّيه السكندريون — بالمرور من أمام مسجدِه، عادة شحبت، أو أُلغِيَت، بعد أن تقلَّص الميدان بفعل فاعل، والموالد يشارك فيها، ويسعى إليها الألوف من الإسكندرية وخارجها، تشغي بالخيام

والأعلام الملوَّنة والبيارق والأغنيات وأكشاك الختان والنذور وهتافات المجاذيب، ومآذن الحي ترفع الأذان — في الأوقات الخمسة — والتواشيح والأدعية، وثبَّتت ذاكرة الطفولة ما كانت تزخَر به الجلوات من مظاهر، بعضها يميل إلى الغرابة والشذوذ، كابتلاع النار، ووخْز الوجنات، وانبجاس الدم من الجسد بتأثير ضربات المطاوي والسيوف، والنوم على المسامير، وتلقي الأفواه رءوس الثعابين … إلخ، لكن اليقين الديني يستقرُّ في النفس، يتخلص من التأثيرات السلبية، بعد أن ينفض الوعي مظاهر الخرافة!

أفرز ذلك كله بيئة ثقافية، لها أسلوبها ومفرداتها، سواء في الطُّرق التي تنتسِب إلى أقطاب الصوفية، أو في الأذكار التي تُنشدها حلقات الذكر، أو في الإنشاد الديني، والأغنيات التي تعكس الصِّلات المُتداخلة بين الروحية والبحث عن لُقمة العيش، البحر واليابسة، الصحو الذكي والاستغراق في الغيبوبة، حتى رقصات «سيد حلال عليه» وأغنيات «السدا» والأجيال التالية من فناني الحي، تعكس الحوار الدائم بين صياد السمك ومورد رزقه، الاتفاق مع أحياء المدينة في المظهر، والاختلاف في الجوهر، بما يهب بحري خصوصيته وتفرُّده!

الإسكندرية هي باب المغرب، فلا فاصل بينها وبين المغرب سوى الصحراء التي تتناثر فيها بلدان المغرب العربي. هي، في التسميات الحالية: ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا. وثمَّة روايات تاريخية تؤكد أن العنصر الوطني في الإسكندرية يعتمد — في أصوله القديمة — على الوافدين من المغرب، ربما من قبل أن يقود جوهر الصقلي حملة الفاطميين إلى الأرض المصرية.

كان العالَم الإسلامي متصلًا. من يخلِّفُ قُطرًا إلى آخَر لا يسأله أحد عن أوراقه الثبوتية، ولا من أين أتى، ولا إلى أين يتَّجه.

وكما قلتُ فإن بحري تحول — في توالي السنين — إلى مركز استقطاب للباحثين عن اليقين الديني، بداية من أداء الفرائض والسُّنَن، وانتهاءً بتلمُّس البركة والشفاعة والنصفة من الأولياء الذين تشغي بهم جوامع الحي وزواياه وأضرحتُه ومقاماته.

ربما البداية في تلك الأعوام القديمة، توالى قدوم المئات، وربما الآلاف من متصوِّفة المغرب العربي، يسعون إلى الحج، تطول الرحلة على الأقدام، أو بواسطة الركوبة المُجهَدة، يُحاولون الْتقاط الأنفاس في الإسكندرية، نية الإقامة أيامًا تمتدُّ إلى نهاية العمر. يشيدون — أو يشيد له المصريون الطيبون (أليسوا أولياء الله؟) — مساجد وزوايا، يُضاف إليها

— بعد الرحيل — أضرحة ومقامات. حتى مسجد تربانة بشارع فرنسا، أنشأه المغربي إبراهيم عبده المغربي، الشهير بتربانة.

عَرَضتُ لتلك الرحلة الجميلة، القاسية، في العديد ممَّا كتبت. ثمَّة أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المُرسي وياقوت العرش والطرطوشي وأبو حامد الغزالي وابن خلدون وابن أبي الدنيا وابن عربي وابن عطاء الله وعبد الرحمن بن هرمز وعلى تمراز وعبد الرحيم القنائي ومحمد العطار (يُنسَب إليه جامع العطارين) وغيرهم، منهم من اتخذها معبرًا إلى مدن مصر الأخرى — والقاهرة بخاصة — ومنهم من فضَّل الإقامة فيها، امتثالًا لإلحاح أبنائها الذين عبَّروا عن اعتقادهم فيه.

رحلات علماء الأندلس ومُتصوِّفتِها إلى الإسكندرية، ومنها إلى مدن مصر وقُراها، أعطت تأثيرًا دينيًّا مهمًّا في البيئة المصرية. ثمة عشرات الجوامع والمساجد والزوايا والمزارات، تتناثر في امتداد الأرض المصرية، تنتسِب إلى علماء المغرب، وعلماء الأندلس بخاصة، تُعمِّق اليقين الدِّيني، وتَسِمُ معتقدات المصريين وعاداتهم وسلوكيات حياتهم بما قد لا نجِدُه في مجتمع آخر. نحن شعب مذهبه السنة، ونُحب آل البيت بما لا يقلُّ عما يُعلنه الشيعة، ساعد على ذلك الامتزاج الجميل ما أتي به، وألَّفه، علماء الأندلس من طُرق صوفية، تتَّجِه بطقوسها إلى الذات الإلهية ابتداء، ثم إلى رسول الله، فآل بيته وصحابته والتابعين، ونؤمِن بمكاشفات الصالِحين وبركاتهم.

هذه هي شخصية الإنسان المصري بعامة، منذُ تداخلت ديانات الفراعنة بمراحل تاريخه المتوالية، حتى الفتح الإسلامي، ثم وجدت المعنى الذي يُمارس في ضوئه — حتى الآن — معتقداته الدينية.

اخترعت مخيلتي أولياء آخرين: الأنفوشي، على الراكشي في «أبو العباس» (رباعية بحري)، الشيخ المغربي في قصة «الإبانة عن واقعة كنز الشيخ المغربي»، الشيخ جابر برغوت في «ياقوت العرش»، الجزء الثاني من «رباعية بحري»، الإمام الحفناوي في «إمام آخر الزمان»، أولياء الله في روايتي «أهل البحر»: إبراهيم سيد أحمد، صبيحة الدخاخني، رافع عبيد، وغيرهم.

تحدثتُ في كتابي «مصر في قصص كتابها المُعاصرين» عن اليقين الديني في حياة المصريين، وما يتَّصِل به من معتقدات وطقوس وتيارات وطرق صوفية ومساجد ومزارات. لعلِّي أُشير إلى عصا موسى وخاتم سليمان ودورهما في مقاتلة على بن أبي طالب للشيطان. يظلُّ

احتدام المعركة حتى ينزل المهدي المُنتظَر من السماء على غمامة، ومعه الملائكة، فيفرُّ الشيطان، ويتبَعُه المهدي، ويصرعه برُمحه.

اخترتُ لأجزاء رباعيتي عن بحري أسماء أولياء الله: أبو العباس، ياقوت العرش، البوصيري، علي تمراز. لم تقتصر الرباعية على هؤلاء المُتصوفة الكبار، اكتملت بانورامية اللوحة بشخصياتٍ مهمة أخرى في دُنيا التصوُّف: الخضر وكظمان ونصر الدين وعبد الرحمن ومنصور وعلي تمراز، وغيرهم.

وفي روايتي «أهل البحر» أوردتُ ما لم يسبِق لي تناوُله في الرباعية؛ كرامات ومكاشفات لأولياء الله، بعضها من اختراعي، وإن اتَّصل السياق. أضفتُ — على سبيل المثال — شخصية سيدي الأنفوشي. استمعتُ إلى أكثر من رواية حول الاسم، وما إذا كان لشخصيةٍ أجنبية، إيطالية على وجه التحديد، أم أنه لشخصيةٍ دينية غابت عنها الشُّهرة التي تحقَّقت لأولياء الحي الآخرين؟

التقطَتْ أُذناي — في رحلتي بالقطار من الإسكندرية إلى القاهرة — قولَ شابٍّ لأفراد أُسرته: رافقت أصدقاء إلى سيدي الأنفوشي.

ولأنه — فيما يبدو — واجَهَ استغرابًا في أعيُن أفراد الأسرة، فقد استطرد: الضريح أسفل قلعة قايتباي، أكَّد لي أصدقائي أنه لِوليٍّ الله الأنفوشي!

أعرف أن صديقي الشاعر والمفكر الكبير مهدي بندق يضع زيارة أضرحة أولياء الله ومقاماتهم في موضع الخُرافة، لكنه فاجأني بموافقتِه على أن يَصحبني — بسيارته الصغيرة — إلى قلعة قايتباي: أنت تحتاجُه لأحداث روايتك، لكنك لن تجد شيئًا!

لم أجد إجابة من أي نوع عند المسئولين عن القلعة. استغربوا السؤال، فالضريح أسفل القلعة لا يضمُّ إلَّا الفراغ، ما لدَيهم من معلومات ينفي وجود موتي داخل القلعة.

أنقذَني عسكري يقف على باب الحجرة الخالية إلا من ضريحٍ يتوسط أرضيتها الترابية. روي لي حكاية الجندي الذي أعدَمَه السلطان قايتباي بتُهمة الخيانة، فلمَّا عرف براءته أمر أن يُدفَن في ضريح داخل القلعة. هذا هو ساكن الضريح، تصوَّر فيه نسوةُ الحيِّ وليًّا يَشفي من العُقم (لماذا العقم بالتحديد؟) يأتين في موعد صلاة الجمعة، يتمرَّغنَ على الأرضية الترابية، توسُّلًا بالخِلفة.

أفردتُ لسيدي الأنفوشي — صار وليًّا! — فصلًا في روايتي «أهل البحر». أفدت من حكي العسكري، وإن بدَّلتُ وحوَّرتُ بالقدْر الذي تتطلَّبه الحكاية الفنية.

كيف صار أولياء الله في بحري جزءًا في حياتي؟

أبو العباس المُرسي هو — في تسمية السكندريين — سلطان الإسكندرية، نحن نقسِم به: والمُرسي، ونُغنِّي له: اقرُوا الفاتحة لابو العباس ... يا اسكندرية يا أجدع ناس، وحول مقامه نطلُب النُّصفة والمدَد، ونروي عن مكاشفاته وكراماته ما قد يُخطِئه الحصر.

أول صورة في ذاكرتي عمَّال بناء يحملون قِطَع الحجارة، ويخلطون الخرسانة المسلحة. كانت تلك — كما عرفت فيما بعد — إعادة بناء الجامع في أوائل الأربعينيات. الصورة شاحبة. جذبني أبي ونحن نسير بالقُرب منها، فلم يُتَح لي أن أستكمِل أسئلتي. اتَّسعَت الصورة — فيما بعد — وتوضَّحت، أَلِفتُ المئذنة والقباب والميدان الفسيح المُمتدَّ إلى البحر، والميدان الآخر المُفضي إلى السيَّالة، والصحن الهائل الذي يسع مُذاكرتنا، ومُصلَّى السيدات تدل عليه المشربية أعلى المكان، والمُقام بدائرة الزوَّار من حوله، يستغيث أصحابها، ويلتمِسون، ويتذلَّلون، يطلُبون الشفاعة والنصفة والمدد.

أما ذلك الضريح — ولعلَّه مقام — الذي يتوسط الحجرة المُستطيلة، الملاصقة لردهة الطابق الأول في مدرسة البوصيري الأولية. فقد أثار انتباهي طيلةَ العامَين، أو الثلاثة، التي أمضيتُها تلميذًا في المدرسة، قبل أن أنتقل إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية، ثم — بفرمانٍ أبوي صارم — إلى المدرسة الفرنسية الأميرية ... ذلك الضريح شغلني في سِني البوصيري الأولية وبعدها، وتناثر هذا الانشغال في العديد من أعمالي الروائية والقصصية، فضلًا عن الكتابات التي تنتسِب إلى السيرة الذاتية.

وثمَّة ميدان الأئمة الذي اختفى بفِعل فاعل، شُيِّدت — في الساحة ما بين مقامات الأولياء وبين جامع المرسي — بنايةٌ خرسانية هائلة، شغلتها مطاعم ودكاكين حِلاقة وملابس ومناديل رأس وإيشاربات وأقمشة وأحذية وأدوات تجميل وعطور ومشغولات عاج. تبرير ما حدث هو توسعة الميدان، (توسعته بإلغائه)!

قبل أن تُرتَكب الجريمة، كنت أتنقل — متباطئًا — بين الشبابيك المعدنية التي تطل على مقام أولياء الله، أنظر منها إلى مقامات الأولياء الاثني عشر. ينفصل الهدوء والسكينة في الداخل عن الصَّخب من حولي، كأن المقامات جُزر منعزلة، لا صِلة لها بالحياة الهادرة في الميدان، الصمت السادر يعزل المبني الصغير ذا الشبابيك المعدنية عن كلِّ ما حوله.

ذلك ما كان يفعله عبد الله الكاشف في روايتي «البوصيري»، الجزء الثالث من رباعية بحري، يمضي في جولةٍ بين مساجد أولياء الله ومقاماتهم وأضرحتهم، منذ يُغادر بيته

أول شارع الأباصيري من ناحية ميدان أبو العباس، يُطيل التوقُّف أمام مقامات الأولياء الاثنَي عشر، ويقرأ ما تُسعفه به ذاكرته من آيات القرآن والأدعية.

أما سيدي على الموازيني، فمدفون في ضريحٍ بداخل المسجد هو وابنه. ولعلَّ تأخُّر اكتشافي لمقام سيدي محمد شرف الدين، أو شارع رأس التين، مَبعثه ازدحام ذاكرتي البصرية بالعشرات من المقامات والأضرحة، في داخل بحري أو خارجه. تعدَّدت المزارات، فلم أفطن إلى المقام الذي احتلَّ ركنًا في جانب الشارع، إلا بعد سنواتٍ من رحيلي عن الإسكندرية.

مثلت الإسكندرية حلقة اتصالٍ بين علماء الأندلس وطريق الحج إلى بيت الله الحرام. ربما مضوا إلى دول القارة الأفريقية التي بلغَتْها الفتوحات الإسلامية.

كانت «رباعية بحري»، ثم اللوحة التي تناولت فيها الشاذلي في «أهل البحر» دافعًا لا لِأقرأ ترجمة حياته فحسب، وإنما قرأتُ أقواله وأحزابه وأدعيته، وهي كثيرة، مع ملاحظة أنه لم يُقدِّم مؤلفًا كالشعراني أو ابن عطاء الله على سبيل المثال.

ولعل أهم ما يحرص عليه مريدو الشاذلية، حفظ أحزاب الشاذلي بكل ما تضمُّه من حِكَم ومواعظ وابتهالاتٍ وصلوات ودعوات. وأهم ما يَعتزُّون بأدائه حزب النصر الذي ألَّفه الشاذلي تقرُّبًا إلى الله، وهداية لمُريديه.

وقرأت أن بردة البوصيري هي أفضل المدائح النبوية، بعد قصيدة كعب بن زهير الشهيرة «بانت سعاد». كنتُ أحاول تهجيتها — وأنا صَبي — على جدران جامِعه، ثم أقبلتُ على قراءتها بعينَي الرضا، وجدتُ أنها تستحقُّ الرضا فعلًا، تستحقُّ الثناء والتقدير على المُستويَين الإيماني والفني. قرأتُ للبوصيري قصائد أُخرى تتَّجِهُ إلى مدح الرسول.

من روايات المُتصوفة أن أولياء الله يتولَّون بأنفسهم — بعد وفاتهم — خدمة مُريديهم، وأن السيد البدوي — في رواية الشعراني — كان يدعو لمولده مُريدين من العرب والعجم، وأن إعادته للأسري كانت بعض كراماته.

ولكل أولياء الله — كما يقول النقشبندي — خصوصية وهمَّة في الحياة والممات.

اللافت — في حي الحُسين القاهري — كثرة اللوكاندات، يتردَّد عليها زوَّار سيد شباب أهل الجنة من أبناء الريف، أسعارها الزهيدة تجعلُها مضرب الأمثال، فأنت تُعاير صديقًا بأنه لا ينزل إلَّا في لوكاندة المشهد الحسيني، بمعني قلَّة دخول المُتردِّدين عليها.

وفي المقابل، فإن بحري يكاد يخلو من اللوكاندات. ففيما عدا فنادق شارع النصر، وأول شارع فرنسا، والشوارع القريبة، فإن أهل المدن والقُرى القادِمين إلى الإسكندرية، طلبًا لزيارة السلطان، أو صاحب البردة، أو ياقوت العرش، وغيرهم، يجدون في الخيام والأكواخ والسُّرادقات شِبه الثابتة في الشوارع الصغيرة المُتفرعة من ميدان أبو العباس — قبل أن ينقلب حاله — ملاذًا يُريحون فيه أبدانهم، ويتناولون طعامهم وشرابهم على نفقة شيوخ الطُّرق الصوفية.

ترام السكة الجديدة

أذكر أني كنتُ أسأل أبي عن مشوار إلى شارع السكة الجديدة، مجرد أن أذهب إلى الشارع. أعرف المقصد الوحيد الذي سيطلُبه أبي، هو شوكت أفندي الحلَّاق، يريد أبي موعدًا كي يحلق عنده. ليس في الأمر استظراف ولا مُبالغة، فلم يكن الرجل يستقبل زبائنه إلا بموعدٍ يُحدَّد من قبل. ولأن التليفون المحمول لم يكن — ربما — قد طرأ في ذهن مخترعه، وكانت التليفونات الأرضية مظهرًا للوجاهة، لا يقوى عليه إلا القلة، فقد كان أبي يبعث بي إلى الصالون، كي أُحدد موعد زيارة أبي ليُسلم له رأسه!

كان الرجل يسكن فيلَّا أنيقة بالقُرب من مدرستي الفرنسية الأميرية بمحرم بك، على الباب لافتتان: الأولى باسم صاحب الفيلا، والثانية تُحذِّر من خطر الكلاب. كان — في ذاكرتي — يخطو إلى السبعين، مُمتلئ الجسد، بشرته البيضاء أميَلُ إلى الحمرة، وصلعته — التي شملت كل رأسه — تُغنيه عن اللجوء إلى مِهنته. لعلَّه من بقايا العنصر التركي الذي شهد نهايته في الحياة المصرية، منذ بدايات الحرب العالمية الأولى.

العرض الذي أُقدِّمه لأبي، بعيد عن غواية التعريفة التي كنتُ أتقاضاها مقابلًا للمشاوير إلى شارع الميدان. كان هدفي الذي أُحبه، ولا أُعلنه، هو ركوب الترام ذي العربة الواحدة من أول الشارع إلى نهايته. هي عربة ترام تختلف عن غيرها من العربات التي تقطع شوارع الإسكندرية بصِغَر الحجم، وأنها تكتفي بنفسها. ما كان يَجذبني إليها كراسيها المُتقابلة، وقلة عدد الركاب، والمناقشات التلقائية، كأنها تدور بين أفراد أسرةٍ واحدة، أُشارك بالإنصات، وأخلي التصوُّر لعشرات الحكايات التي تُدخلني عوالِم لا أعرفها، مُغايِرة لتلك التي أعيشها في شوارع بحري، حتي زحام شارع الميدان بعمليته وصخبه، يختلف عن الضبابية الحالِمة التي تُحيط بالترام الصغير، وبي، ما بين أول شارع السكة

الجديدة إلى قُرب نهايته. تُذكرني بحكايات جدي، وبما كنتُ أقرؤه في مكتبة أبي من كتب التراث الحافلة بالسِّحر والخيال والأسطورة.

أحببت الصعود إلى العربة العلوية في ترام الرمل. يلفُّني انبساط وأنا أجلس في المقعد المواجِه للنافذة الزجاجية المُستطيلة، أرقب الميادين والشوارع الواسعة والبيوت والدكاكين والمقاهي والإعلانات والأسوار، وقضبان الترام — في استقامتها وانحناءاتها — تندفع إلى الخلف، على جانبَيها الخُضرة والأعشاب البرية المتناثِرة ونبات عباد الشمس بصُفرته الوهَّاجة.

كان ذلك ما يفعله الراوي في روايتي «غواية الإسكندر».

وكان الترام وسيلة تنقلي بين بحري وأحياء الإسكندرية الأخرى. لم أستقل الأوتوبيس إلَّا لأماكن يغيب عنها الترام. يُقلُّني الترام من المحطة أمام قهوة فاروق إلى محرم بك، حيث مدرستي الفرنسية الأميرية والإسكندرية الثانوية، مشوار يومي ألفتُه إلى حد الإحساس بالرتابة، وربما الملل. الطريق هو هو، شوارعه وميادينه وانحناءاته والدكاكين على الجانبَين، كل شيء يتكرَّر كأنه مشهد يُعاد عرضه. أنشغل بالعادة التي لا أذكر متى صارت جزءًا في تكويني، فأنا أجعل المواصلات مكانًا للقراءة. أعزل نفسي عما حولي، وأنغمس في قراءة كتاب، لا أرفع رأسي إلا لمتابعة مناقشة حادَّة بين الكمساري وأحد الركاب، أو ما يستدعي الالتفات في الطريق. حتى لو أغمضتُ عيني، بتأثير سهر الليلة الفائتة، فإني أطمئنُّ إلى محطة الوصول. وحين استضافني البرنامج التليفزيوني «رائحة المكان» الذي أبدعَه الفنان سيد شلبي، فقد حرصتُ أن أبدو كأني أهمُّ بركوب الترام ... عِشرة قديمة لم أنسها!

أخترق شارع الميدان إلى تقاطُعه مع شارع السكة الجديدة. عربة الترام الوحيدة في وقفتها — غالبًا — كأنها تنتظِرني.

الشعور بالنشوة يتملَّكني، ونظرتي تجول بين الركاب (لم يزيدوا مرة عن عدد أصابع اليدَين) والمحال على جانبي الشارع حافلة بالبضائع: البقالة وأجولة العطارة وصناديق الفاكهة ومشغولات النحاس وقطع الغيار وورش الحدادة والمطاعم والمقاهي الصغيرة، وثمة مزيج لروائح البخور والفلافل والكباب والكفتة والمكرونة (لم تفتح محال الكشري في الإسكندرية إلا متأخرًا) وقلي الأسماك. يبدو لي كل شيء — ربما للترام، ولضيق الشارع — مُغايرًا لشارع الميدان. يُضيف إلى ضبابية الصورة — أحيانًا — مُشيعو جنازة،

أسرعت خطواتهم وراء النعش لإكرام الميت بدفنه قبل أن يحلَّ المساء، يتداخَل المشهد الطارئ، الصامت، في عمومية المشهد، كأنه حلم.

اختفى الترام — فيما بعد — ورفعت القضبان، تحوَّل إلى ذكرى، أستعيدُها حين يعرض التليفزيون عرباتٍ مُماثلة في مُدن العالَم.

لم يغِبِ الترام الصغير — وحدَه — من حياة السكندريين. اختفت مظاهر أخرى كثيرة، كانت تضيف — بالنسبة لي في الأقل — مغايرة جميلة، مثل الجولة الصباحية لخَيل الملك، وجلوات المولد، وموسيقى الشرطة في عروضها بشوارع المدينة، والصواريخ الملونة فوق السلسلة.

الزحام الذي تُعانيه الإسكندرية الآن، جعل أهلها يأمُلون فحسب أن تسعَهم الشوارع — مشاة وراكبين — بما يُعينهم على قضاء أعمالهم.

لا أذكر المرة الأولى التي ركبتُ فيها الترام بمفردي. اعتدتُ رفقة أبي في زياراتٍ لأماكن وأصدقاء، وحدي أو مع أخي الأكبر. زُرنا بيت عمَّتي في شارع ابن طريف بمحرم بك، وبيت عمِّي في شارع أمير البحر بالحي نفسه، وبيت عمتي (ماتت وأنا طفل، فلا أذكُرها) نلتقي وديدة وعدولة ابنتَي عمَّتي الراحلة، وأباهم عم كمال، وابنتَيه من زوجته الأولى، الراحلة.

صحِبَني أبي كذلك إلى الشركات التي كان يعمل بها: الجراية للورق، كوري للأقطان، شركة التأمين الأهلية. تعرفت إلى عددٍ من مسئولي الشركات الثلاث، ورافقته إلى سراي الحقانية، عرَّفني بالشاعر عبد اللطيف النشار، وبالمُحامي والسياسي أحمد مرسي بدر، زُرناه في مكتبه بشارع شريف باشا، وعرَّفني بأصدقاء آخرين، يُقيمون في مواضع مختلفة بالإسكندرية، وكان الترام وسيلة بلوغي أماكن تلك الشخصيات. وأظنُّ أني أفدتُ من ذلك كله في العديد مما كتبت، مثلًا: رواية «حكايات الفصول الأربعة»، قصة «نبوءة عرَّاف مجنون».

لكن ركوبي الترام — بمفردي — للمرة الأولى، عندما توجَّهت إلى مدرسة الإسكندرية الابتدائية في شارع مُتفرع من شارع الإسكندراني بمحرم بك. أمضيتُ فيها أيامًا قليلة، قبل أن يُصدر أبي فرمانًا بنقلي إلى المدرسة الفرنسية الأميرية بشارع المأمون، المُتفرِّع من الرصافة. وجد في الفرنسية لغةً للمُستقبل، وهو ما ثبت خطؤه فيما بعد — كما نرى — فقد أوشكتِ الإنجليزية أن تبتلِع لغات العالم، حتى الفرنسية تُعاني أزمة مُعلنة.

ولأني كنتُ اعتدتُ ركوبي الترام مع أبي، فقد ظلَّ الشعور بالاعتيادية في داخلي، حين ركبتُ الترام للمرة الأولى، وأنا أحفظ الطريق إلى مدرستي الجديدة — آنذاك — الفرنسية

الأميرية في نهاية شارع المأمون بمحرم بك. ثم أصبح ركوب الترام بتذكرة القرش — ذهاب وإياب — تصرفًا يوميًّا في ذهابي إلى المدرسة، وعودتي منها، أُشاهد، وأستمع، وأتأمل، وأكتسب معارف وخبرات.

كان الحدَث الأهم في علاقتي بالترام، عندما واجهتُ الموت، بعد أن قفزتُ على السُّلَّم في أثناء سير الترام، لكن قدمي أخطأت الموضع، وسقطَت في الفراغ، ولولا أني تمددتُ في المساحة بين الرصيف والقضبان، ربما كنت في خبر كان، وهو ما سأرويه في أسطرٍ تالية.

عرفت — فيما بعدُ — أني نجوت — ذلك اليوم — من المصير الذي لقِيَه زميل لي بالمدرسة، حاول — مثلي — أن يقفز على سُلَّم الترام، فأخطأ القفزة، وشطرت عجلات الترام ساقه. ظل ينزف في موضعه، وحين وصلت سيارة الإسعاف كان قد مات.

لماذا اختفى الترام من شوارع القاهرة أو كاد، بينما الترام مَلمَح رئيس في وجه الإسكندرية؟

ظنِّي أن زحام القاهرة كان له تأثيره، ليس في اختفاء الترام فحسب، وإنما في اختفاء وسائل نقلٍ أخرى، مثل عربات الحنطور وعربات الكارو ... إلخ، والسبب — في تقديري — هو الزحام الذي شهدته القاهرة خلال العقود الأخيرة، حتى مترو مصر الجديدة، اختُصِرت مسافة النهاية، فلم يعُد يشقُّ شارع الجلاء إلى كورنيش النيل. اقتصرت محطة النهاية — أو البداية — على ميدان رمسيس. أما ترام الإسكندرية فهو ملمح مُهم في الحياة السكندرية، قد تمتلِك سيارة خاصة، أو تستقل الأوتوبيس، أو تُفضل السير ماشيًا، لكنك تلجأ — في أوقاتٍ ما — إلى الترام، سواء في داخل المدينة، أو في منطقة الرمل، يُقلُّك من ناحيةٍ إلى أخرى.

الشوارع التي يخترِقها ترام الرمل، تأذن له بالسير إلى جانب وسائل المُواصلات الأخرى، بينما مُعظم شوارع المدينة واسعة نسبيًّا، فهي تسمح بمدِّ قُضبان الترام دون خشية على حركة المرور، وثمة شوارع يُهمل السكندريون ضِيقها، لأنهم يحتاجون إلى الترام في معظم تنقُّلاتهم.

للترام وجوده في العديد من أعمالي. أذكر — على سبيل المثال — عندما تملَّكني التردُّد — لثوان — والترام يزيد من سُرعته، بعد أن غادر محطة الصينية بمحرم بك إلى محطة الرصافة. كنت قد اخترقت شوارع جانبية من مدرستي — الفرنسية الأميرية — لأركب الترام من أوله. أغراني قيام الترام قبل أن أصعد إليه بأن أقفز داخله. جاوَزَتْ سُرعته

تردُّدي. اندفعتُ أقبض — بيدٍ — على القائم الحديدي، بينما اليد الأخرى تحمل حقيبة الكتب، لكن قدمي أخطأت السُّلم. انحشرتُ بطولي في الفجوة التي تخلَّفت من عمليات صبِّ خرسانة بين قضيب الترام وأسفلت الطريق. حلَّت لحظة سكون، لا صِلة لها بانطلاق عجلات الترام الحديدية بجوار جسدي المكوَّم داخل الحفرة الطولية، ولا بالكتب التي تناثرت من الحقيبة. غاب التذكُّر والرؤية والإحساس باللحظة والخوف والأمل، حتى الصراخ خنقَتْه قوة في داخلي لا عهدَ لي بها. تنبَّهت — بعد زمن — إلى أنَّ الترام مضى بعيدا، فعُدت إلى نفسي.

أذكر المرأة التي لمحتُها في انحناءة الترام من شارع النبي دانيال إلى شارع السلطان حسين. كانت تضع على صدرِها أكياسًا من الورق، يطلُّ منها خضار وفاكهة. اجتذبَني الوجه الأبيض المُشرَب بحمرة، والشعر المُسدَل في إهمال، والجبهة المُندَّاة بعرَقٍ خفيف، والعينان الواسعتان الصافيتان، تُظلِّلهما رموش واضحة، والأنف الدقيق، والشفتان الرقيقتان. وكانت ترتدي فستانًا واسعًا، وحذاءً بدون كعب. ظلَّت الملامح في ذهني حين عُدت إلى البيت. استعدتُ الوقفة والأكياس المُحتضنة، وظللتُ أستعيدُها، تنبثِق في رأسي كالومضة، ثم تختفي، وتظهر بعد فترةٍ تطول وتقصر، ثم تختفي. مضت أعوام كثيرة، وما زلتُ أستعيد صورة المرأة في انحناءة الترام، كأني رأيتها أمس.

وفي روايتي «غواية الإسكندر» لم يعُد نزول الأستاذ الجامعي وليد شكري إلى الطريق للذهاب إلى مكتبه وحدَه، ولا إلى مواقع التنقيبات. يحرص، فيغيب عن البيت، يمضي الوقت في تأمُّل الأماكن، والسير بلا هدف. تتفرَّع أمامه الميادين والشوارع. تختلِط المعالِم والرؤي والتوقعات. أصعد إلى الدور الثاني من ترام الرمل، أجلس في المقعد الأمامي، تبين الشوارع باتساعها، البيوت والدكاكين والمقاهي وقضبان الترام في استقامتها وانحناءاتها. على جانبَيها الخضرة ونبات عباد الشمس بصُفرته الوهَّاجة. يستقل ترام الخط الدائري، والأوتوبيس من بدايته في ميدان المنشية إلى نهاية الخط، ويعود. لا يشغله المسار الذي يمضي فيه، ولا المحطة النهائية. يظلُّ في جلسته حتى يعود إلى بداية الخط. يمضي في الشوارع الضيقة، المُنحدِرة، ناحية البحر. ولمَّا أُحيل الأب رجب كيرة إلى المعاش، من وظيفته في شركة الترام (رواية «صخرة في الأنفوشي») كان قد خلَفَه ابنه الأكبر مدحت في الوظيفة نفسها. وظلَّ الرجل سعيدًا بالأبونيه المجاني للترام، حتى إنه كان يستقلُّه في المسافة القصيرة ما بين قهوة فاروق وجامع أبو العباس.

أودة القعاد

كنا نُسمِّيها أودة (حجرة) القعاد. تطل — من الواجهة — على امتداد شارع إسماعيل صبري إلى الكورنيش وأُفق البحر، وإلى اليمين امتداد الشارع إلى شارع الميدان وسيدي العدوي والترسانة البحرية. ومن اليسار شارع رأس التين إلى الموازيني وأبو العباس وأبو وردة وباب الجمرك رقم واحد وميدان إبراهيم باشا ومقابر البطالمة وسراي رأس التين.

لم تكن أوسع حجرات الشقة، لكنها استحقَّت تسميتَها بجلوسنا الدائم فيها، ننام، ونأكل، ونلعب، ونقرأ. أثاثها كنبة عريضة لصق الجدار المواجِه للبحر، وفي المدخل بوفيه ضخم يمتدُّ إلى نهاية الجدار، تعلوه رُخامة يتداخل فيها الأبيض والبُني، وله ستة أدراج مستطيلة، تتجاور في صفَّين. على رخامة البوفيه، كتب أبي برقية من كلمتَين «خديجة تُوفيت». وطالبَني أن أحمل الورقة إلى مكتب التلغراف في شارع فرنسا. كان موظف المكتب صديقًا لأبي، فأبدى تأثُّره.

في مساء اليوم نفسه، سبق الصوات جدتي وهي تقترب من باب البيت، عرفت أنها تسلَّمَت البرقية. بعد ظهر اليوم التالي، بدت الحجرة خاليةً من الأثاث، عدا سجادة افترشت الأرضية.

قال أبي في ضيق: ماذا أفعل لجدتك؟! ... أصرَّت على المعدِّدة!

روت لي شقيقتي ما جرى في الحجرة من طقوس العديد ... كلمات مُنغمة، حزينة، تنعي الراحلة — أُمي — وإن لم تُحسِن شقيقتي الْتقاط عبارة واحدة من كلمات العديد!

كان للحجرة شرفتان، الأولى تُطل — يمينًا — على شارع فرنسا، ويسارًا على شارع رأس التين، وفي المواجهة امتداد إسماعيل صبري إلى تقاطُعه مع التتويج، فطريق الكورنيش. تحد مساحة البحر المُتاحة للرؤية آخِر بنايتَين في أول إسماعيل صبري.

الشرفة الثانية تطل — من الوسط واليمين — على شارع إسماعيل صبري، ومن الوسط واليسار على شارع فرنسا. معظم الأيام مغلقة، لا نفتحها إلا استجلابًا لتيارات الهواء أوقات الصيف، أو لمتابعة الفرجة على المواكب القادمة من شارعي الأباصيري ورأس التين: المظاهرات والجلوات والموالد والعربات المُحملة بأثاث العرائس. قد يختار نافخ النار أو الحاوي أن يقف أسفلها لعرض ألعابه. نتلاصَق خلف سور الشرفة الحجري، نتابع اتساع الدائرة حتى ينتهي العرض.

بعد رحيل أبوَيَّ صرتُ — بالطبع — أكثر حرية، أقف وراء كل شرفةٍ بالقدر الذي يُتاح لي مشاهدته من صور الحياة حول البيت.

في الركن — ما بين الشرفة المُطلة على المينا الشرقية، والثانية المُطلة على شارع إسماعيل صبري — مكتبة تمتلئ بالكتب، كانت — كما رويتُ لك — هي مدخلي الحقيقي إلى دنيا القراءة.

يعود أبي من عمله، فيقلُّ تردُّدنا على الحجرة. ربما لا ندخلها. يجلس أبي على كرسي بالقُرب من المكتبة، يوسِّد ساعدَيه على كرسي آخر، وإلى جانبه طاولة صغيرة، فوقها سبرتاية وكنكة وأكواب صغيرة. يصنع لنفسه — بين فترة قصيرة وأخرى — كوبًا من القهوة، ثم يستأنف النوم. ربما تسلَّلت إلى الشرفة، أطلُّ على حركة الطريق، وإلى أُفق البحر. قد أُقلب في المكتبة، وأعود بكتابٍ لأقرأه.

قيمة القراءة أنها تنقلك — دون أن تترك مكانك — بين بلادٍ ومدنٍ وقرًى وصحارٍ وجبال وسهول ووديان وغابات وبحار ومُحيطات، ما لا تعرفه من الأمكنة، أداتك في التنقُّل — إلى جانب القراءة — حصيلتك المعرفية، وخيالك.

كانت أيام طه حسين أول ما قرأتُ من كتُبٍ أدبية. كنتُ في حوالي الثامنة. أمكنني الفهم في القراءة الثالثة، وكانت الرواية/ السيرة الذاتية هي الدافع — كما أشرتُ من قبل — كي أكتب محاولتي الأولى «الملاك». ثاني كتاب قرأته عن الحياة الجنسية، مؤلِّفه فائق الجوهري المحامي. التقيتُ بالاسم في أعمالٍ كثيرة سابقة وتالية. لم أكن أدركتُ البلوغ، لكن العنوان اجتذبني. سحبتُ الكتاب، وحاولتُ أن أُركِّز لأفهمَه، وأن أُعاود القراءة. نسيتُ كل ما قرأته، لكنني أتذكَّر معلومةً وحيدة أشار إليها الكاتب في سياق السرد. لأن الرجل في الغابة لا يرتدي ثيابًا من أي نوع، فإن عضوَه الذكري لا يطول — في لحظات الإثارة — إلا قليلًا، هو طويل حتى في أوقات الاسترخاء والبعد عما يثير!

تعدَّدت قراءاتي في الحجرة وتنوَّعت، بقدْر تعدُّد الكُتب في مكتبة أبي وتنوُّعها. كانت اقتصادية باعتبار مِهنة أبي كمُترجم في الاقتصاد، وإن ضمَّت كتبًا في التراث والأدب والسياسة والتاريخ والجنس، وخلت تمامًا من كتب الأطفال التي كنت سأسعد لو أني عثرتُ على أي كتابٍ منها.

منذ تلك الأيام البعيدة، صارت المكتبة تكوينًا مهمًّا في شخصيتي. أحبُّ التردُّد على المكتبات، والوقوف داخلها، وتقليب الكتب، وقضاء الساعات في القراءة وتسجيل الملاحظات. مجرد أن أكون في داخل مكتبة، يُشعرني بالأُسرية، بالحميمية، أني في مكانٍ يخصُّني.

أذكر قول محمود الشنيطي وأنا أبحث عن قراءاتٍ في مكتبه بهيئة الكتاب: أثق أنك أحببتَ القراءة قبل المُراهقة، المراهقة تُثبِّت ما نُحبه، الرياضة، القراءة، العادات اليومية ... إلخ، هذه الفترة ما بين الرابعة عشرة إلى الرابعة والعشرين تُشكِّل الشخصية بما يصعُب تغييرُه.

أحببتُ القراءة بالفعل منذُ الطفولة: في مكتبة أبي المُطلة على المينا الشرقية، وفي بيوت الأصدقاء والجيران، وفي دكان حمادة النن بائع الصحف بشارع إسماعيل صبري، ومكتبة فارس بالقُرب من فُرن حبيب وانحناءة الترام في تقاطُع صفر باشا ورأس التين. أقسو على نفسي لكي أواصل القراءة. يَغلبني النوم، وقد يسقط الكتاب من يدي. ألتقِطه، وأنفض رأسي، وأفتح عينيَّ على اتساعهما، وأقرأ. لا أقرأ وفق خطةٍ مُحددة، ما تُصادفه يداي، كتبًا في الدين والسياسة والتاريخ والاقتصاد والطب والتجارة والأدب والفن.

في أثناء القراءة، أضع خطوطًا تحت العبارات التي تستوقفني — وهو ما أفعله حتى الآن — أو أضع الخطوط إلى جانب الأسطر إن طال التعبير الذي اجتذبَني. ربما سجلتُ ملاحظات تُعينني — في قراءة تالية — على فهم المعنى الذي توصلتُ إليه. ربما اكتفيتُ بالقراءة السريعة أو بالتصفُّح، لكن دواوين الشعر والروايات والمجموعات القصصية تشدُّني، فأُطيل القراءة، أستعيدُ الفقرات والتعبيرات والمواقف، أشعر أنها دُنياي المفضلة.

مع أن أبي كان قارئًا جيدًا، فإنه كان يرفض أن أقرأ ما لا يتَّصِل بالمواد الدراسية. يخشى أن تشغلني عنها كتب أجدُها في مكتبته للمنفلوطي وطه حسين والعقاد والمازني وفائق الجوهري وغيرهم.

صدر أول أعداد الرسالة في ١٩٣٣م، وصدر عددها الأخير يوم الاثنين ٢٣ فبراير ١٩٥٣م. رغم صغر سِني — نسبيًّا — آنذاك، فإني أذكر مقال طه حسين ذي العنوان

المُفعم بالدلالات، عقب إغلاق الرسالة أبوابها نهائيًّا. وأذكر مقال الزيات الذي يفيض شجنًا وحسرة «وأي بأس؟» وقد نُشِر المقالان في الأهرام؛ أهم ما كان أبي يحرص على اقتنائه — بالإضافة إلى «المصري» — من الصحف اليومية.

وعلي الرغم من أن سلسلة روايات الهلال قصرت إصداراتها من الروايات العالمية على المُلخصات، فإنها أتاحت لي آفاقًا غير محدودةٍ من الوعي، وملامسة الخيال الجميل. كانت هي المدخل الحقيقي لقراءة الروايات الكاملة، أدَّت الدور نفسه الذي قامت به مسامرات عمر عبد العزيز أمين، وكتاب حلمي مراد.

كنت أقف — أحيانًا — على باب الحجرة، أو أجلس على الأرض بين أصحاب أبي، يتناثرون على الكنبة وكراسي المائدة المنقولة من الصالة، يخوضون في مناقشاتٍ عن الجوِّ ومواعيد النوَّات وغلاء الأسعار ومباريات كرة القدم وحزب الأغلبية وأحزاب الأقلية والملك وأفعال اليهود في فلسطين. ألتقِط ما يسهل فهمه، وأحاول — بيني وبين نفسي — فَهم ما قد يكون غامضًا.

أذكر — على سبيل المثال — أني لم أكن أعرف الفرق بين روسيا وسوريا، وأنطق القدس بفتحة على القاف، والحمل بسكون على الميم، لكنني — على نحوٍ ما — كنتُ أعي الأسماء والأحداث والتطوُّرات، والصِّلات بينها، ولماذا يؤيد أبي وأصدقاؤه هذا التصرُّف من هذا الزعيم السياسي، وينتقدون التصرُّف نفسه من زعيمٍ آخر، والمأساة التي تُهدد بابتلاع أرض فلسطين، وهجمات البدو على قوافل الحجَّاج المُتجهة إلى الحجاز، والفرق بين أداء الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت، ومعنى فوز فريق كرة السلَّة المصري ببطولة أوروبا، ويُجيبون عن السؤال: ما صحَّة الشائعة التي تذهب إلى أن محمود شكوكو يتقاضى مبلغًا شهريًّا من إسماعيل يس حتى يُتيح الأول للثاني فرصة العمل في ظل انتشار شكوكو المفاجئ، الكاسح، حتى بيعت تماثيل حلوى في هيئته على عربات اليد، شكوكو بتعريفة!

كنتُ أتجاسر، فلا أكتفي بالسؤال، وإنما أحاول التعبير عن رأيي في المناقشات المُحتدِمة. يكتفي أبي بدلائل إعجابٍ صامتة، ويُثني أصدقاء له على وجهة نظري، ويرى آخرون أن المشاركة بالسماع هي الدور الذي يجِب ألَّا أجاوِزه.

إذا كان أبي خارج البيت فإن جلساتنا في الحجرة تطول، ننشغل بالكلام والمُذاكرة والقراءة وتناوُل الطعام، وننام — أحيانًا — متجاورين على المكتبة العريضة.

أجمل المشاهد حركة القوارب في المينا الشرقية لصيد الميَّاس، صيد العصاري. ظنِّي أن التسمية لأن الصيد في ذلك الوقت من النهار. وسيلة الصيد الوحيدة — كما كنتُ أراها —

هي الطرَّاحة، يقذف بها الصياد من فوق قاربه الصغير، في دائرةٍ صغيرة، ثم يَسحبها بما يكون داخلها من سمك المياس. بالمناسبة، فإن السمك ليس من أكلاتي المُفضلة. أستبدِل بالسمك المشوي أو المقلي الذي تعدُّه أُمي، طبق فول بالزيت — بمليمَين — من الطنطاوي في شارع التتويج ... لكنني أحببتُ المياس، منذ أوقاتِ صيده حتى تحوُّلِه إلى طبقٍ شهي بين طبقات من شرائح البطاطس.

أذكر أني كنتُ أتساءل: كيف يعيش أبناء المدن الداخلية في مصر دون أن يُشاهدوا البحر، بل كيف يعيش سكان أحياء الإسكندرية البعيدة عن البحر (وهي — في الحقيقة — أحياء قليلة) دون أن يكون البحر في مرمى أنظارهم.

البحر، الأفق، البرتقالة الهائلة التي تغوص في البحر، دائرة من الألوان المتداخلة، وإن غلبت الحمرة، تشحب وتتقلَّص، وتغيب، فتحلُّ الظلمة، يأتي الليل، وتتَّجِه عيناك إلى حيث القمر، يواصِل رحلة النهار والليل.

رحلت أُمي، ثم لحق بها أبي. اختزلنا الشقة في حجرة القعاد، لا نكاد نتركها. ظلَّ كل شيءٍ في مكانه، وإن وضعت مكتبًا صغيرًا إلى جوار الكنبة، وضعت فوقه ما يُهمني من مكتبة أبي، وقصرت أوقات القراءة والكتابة فوقه. صار تنقُّلي في حرية بين الشرفتَين. وحين تناوشتني رغبات المراهقة، أكثرت من التطلُّع إلى ما بداخل الشُّقق المواجهة، وإلى عابرات الطريق، ربما تمازج الخيال واليد الصاخبة في صُنع النشوة.

لم أكن أعرف أن الفعلة التي ألتذُّ بها هي العادة السرية، لم أحاول حتى أن أربط بينها وبين ما قرأته لفائق الجوهري في مكتبة أبي عن العادة السرية، وأن الفتاة تُمارسها بكعب قدمها، بينما يلجأ الولد إلى يده. ثم قرأت — في صحيفة الحائط بمدرسة الإسكندرية الثانوية — حديثًا للرسول (ص) يُحذر فيه من يُمارس الاستمناء بأنه سيدخل النار ويدُه حبلى.

سألت، ففطنت إلى أني — إن لم أتب حالًا — فسأكون أحد هؤلاء الذين يدخلون النار بأيديهم الحُبلى!

كنتُ أُطل من شرفة حجرة القعاد، البحر يمتدُّ بلا أفق، وخيالاتي تمتدُّ في الأفق اللامحدود كذلك، يساعدني على الاختلاء بنفسي أني كنتُ أدَّعي التفرغ للمذاكرة، وأُغلق باب الحجرة من الداخل، وأواجِهُ البحر، وخيالاتي، أرقُب الانبثاق الرائع في لحظةٍ تختلف عن كلِّ ما عشتُه من قبل.

بدَتْ لي عالمًا غريبًا، حافلًا بالرؤى والأخيلة والأسرار المُتجدِّدة.

كانت وقفتُنا تطول وراء الشرفة في متابعتنا للمناسبات الدينية: صلاة الجمعة التي تجتذِب خُطَب الشيخ عبد الحفيظ ناسها، يَمتلئ بهم ميدان الخمس فوانيس أسفل البيت، ويمتدُّ الحصير إلى عمق الشوارع الجانبية، صلاة العيد، سوق العيد، الجلوات القادمة من مولد أبو العباس، مواكب الطرق الصوفية بالبيارق والأعلام والدفوف والطبول والرفاعية والحواة والمُنشدين، استقبالات الزعماء والرجال المُهمِّين من باب رقم واحد عبر شارع أبو وردة، وشارعَي رأس التِّين وفرنسا وميدان المنشية وشارع شريف، إلى ميدان محطة الإسكندرية.

أدركتُ — في لحظةٍ لا أذكرها — أن الحجرة هي صِلتي الحقيقية بالعالم الخارجي. أُطل منها على الجيران في البيوت المُقابلة والجانبية، وعلى أحوال البحر في تقلُّباتها المختلفة، والباعة أمام الدكاكين، وعلى الأرصفة، وحركة الطريق. اختزلتُ العالَم في مساحة الحجرة المُحددة، والمحدودة. أشاهد، وأستمع، وأتأمَّل، وأقرأ، وأكتب، وأُمنِّي النفس بمصادقة المُستحيل.

حجرة القعاد شخصية رئيسة في العديد من أعمالي الروائية والقصصية. رواية «صيد العصاري» — على سبيل المثال — التي استعدتُ فيها الصِّلة بين البحر وبيني. أطل من الشرفة — في أوقات العصر — على قوارب الصيد الصغيرة، وهي تصيد المياس.

لماذا وقت العصر؟ ولماذا سُمِّي المياس صيد العصاري؟

لم يشغلني المعنى، وإن خلَّفَت في وجداني تلك العلاقة المُحددة بوقت مُحدد، تأثيراتٍ يصعُب إهمالها، وانعكست — في كتاباتي — على العديد من الشخصيات والمواقف والأحداث.

بعد أن تركتُ البيت رقم ٥٤ شارع إسماعيل صبري، تبينتُ — آسفًا — غياب صورةٍ واحدة لي في أودة القعاد، وفي الشقة جميعًا. ليس إلا صورة واحدة الْتقطَها مصور أتى به أبي. وقفتُ إلى جانب سميرة وعلي في جانب الطريق، أمام البيت، من حولنا جيران ومارة.

تمنيتُ لو أني صحبتُ معي إلى القاهرة صورةً لي في داخل الشقة، أعود إليها فأتذكَّر أجمل سِني العمر.

رباعية بحري

تجربة شخصية

إذا الإنسان طاف حول الإسكندرية في الصباح،
فإن الله سوف يصنع له تاجًا ذهبيًّا،
مرصعًا باللآلئ،
ومعطرًا بالمسك والكافور،
يشعُّ الضوء شرقًا وغربًا.

«ابن دقماق»

بداية، أنا لم أكتب عن البحر، ولا عن الصِّلة بين البحر واليابسة، وهو ما يبين في الكثير من إبداعاتي الروائية والقصصية، لم أكتب لطرافة الموضوع، وإنما لأنه لم يكن بمقدوري سوى الكتابة عن البحر. لم يكن في صلتي بالبحر أول مرة، لأني ولدت، ونشأت، على شاطئه. البحر يحتضن الإسكندرية من معظم جوانبها، ويُحيط بحي بحري من ثلاث جهات، كان هو المكان الذي تطلُّ عليه شرفة بيتنا، ويطلُّ السطح على امتدادِ آفاقه. كنتُ أسير على شاطئه، وأتابع التعامُل اليومي معه في صيد السنارة والطراحة والجرافة، وعمليات الشحن في الميناء الغربي، وركوب البحر نفسه في قوارب صغيرة تعبُر المسافة من باب واحد إلى باب رقم ستة، أو في لانشات تمضي إلى قرب البوغاز. حتى في الظلام، كنتُ أستمع إلى البحر، وإن كنت لا أراه. أتذكَّر قول رامبو: إنه البحر وقد رحل مع الشمس.

البحر ليس موضعًا طارئًا في حياتي. إنه الحياة نفسها — والموت أيضًا، كما سأُحدثك حالًا — وعلى الرغم من انقضاء عشرات الأعوام على ابتعادي — بصورةٍ عملية — عن الإسكندرية، فإني أُفضِّل — حتى الآن — أن تدور أحداث أعمالي في بحري، لأني أشعر أن الحي تحت تصرُّفي. أعرف تاريخه وأسواقه وشوارعه ومساجده وبناياته وسلوكيات حياته اليومية. أعرف المُعتقدات والقِيَم والعادات والتقاليد. حتى مُسمَّيات الأشياء واللهجة هي وسيلة التعبير عندي. حتى مستطيلات البازلت التي تتفق فيها مع المدن الساحلية الأخرى.

البحر عند الشخصيات الأدبية بعامة، مبعث للتأمُّل الرومانسي، ولقضاء إجازة الصيف. البحر عند شخصياتي مصدْر للرزق. يحصلون على قوت أيامِهم بالعمل فيه، والإفادة من تنوُّع خيراته، وتُشقِيهم أحوالُه من نوات وعواصف ورياح، حتى إنه يختطف البحارة والصيادين — أحيانًا — من فوق بلانساتهم (البلانس هو سفينة الصيد الكبيرة) ويُغيِّبهم في أعماقه، ويُعطي الموروث الشعبي تأثيراته التي تدين — غالبًا — للخرافة. البحر مرادف للحياة بعامة في الأعمال الإبداعية، فهو يتسربَل بالسحر والخرافة والأسطورة. أما البحر في أعمالي، فهو مرادف للحياة والموت في آن. قد يكون حصيرة — بلُغة أهل الإسكندرية — فيُتاح ركوبه، والحصول على الرزق من أعماقه. وقد يُعاني النوَّات والعواصف والرياح، فتنعكس معاناته على من يركبونه، أو يقِفون على شاطئه، بحثًا عن الرزق. ولعلِّي أذكر قول سان جون بيرس: «ليكن مشهد البحر دافعًا لوعودٍ بأعمال جديدة، أعمال حية وجميلة، لا تكون إلا جميلة وحية، أعمال مُتمردة مندفعة، تخلُق لنا — من جديد — طموح الحياة الإنسانية».

كنتُ أتحدَّث في المركز الثقافي الإيطالي عن الإسكندرية، وحي بحري بخاصة. لاحظتُ — بدا لي الأمر كأني أكتشِفه للمرة الأولى! — أن أبناء بحري ينتمون إلى الطبقات ما بين الدنيا، وما فوق المتوسطة، فهم يعملون في صناعة المراكب والصيد وبيع السمك وأعمال البحر وشركات التصدير والاستيراد، وهم حرفيون وتجار ومِهنيون … لكن أصحاب رءوس الأموال الكبري — وكبار الاقتصاديين بعامة — يفضلون السُّكنى في منطقة الرمل. لذلك فإن بحري يخلو إلَّا من قصرَين مُتقابلَين، أحدهما سراي رأس التين الذي بناه الخديو إسماعيل في أواسط القرن التاسع عشر، وهو الآن أحد قصور الدولة. وفي مواجهته قصر آخر، صغير، للسيدة عصمت مُحسن حفيدة حسن باشا الإسكندراني، والتي كان يُطلَق عليها — لا أدري من كان وراء التسمية — لقب أم البحرية. فيما عدا قصري رأس التين

وأم البحرية (أزيلَ القصر الثاني — فيما بعد — وشُيِّدت في موضعه بناية سكنية) فإن ملامح بحري المعمارية قوامها بيوت قصيرة، مُتآكلة، متلاصقة، وبنايات متوسطة، وما فوق المتوسطة. ثمَّة الأقل من البنايات الفاخرة، لكن النسق المعماري لحي بحري ينتمي — في معظمه — إلى الطبقتَين الفقيرة والدُّنيا

أحبَّ كامي البحر، ولا أعتقِد أن أحدًا من الأدباء الفرنسيين عبَّر عن مشاهد طبيعة البحر المتوسط مثل كامي. وثمَّة ملفيل في عمله الضخم «موبي ديك»، وجوزيف كونراد الذي اتخذ البحر موضوعًا للعديد من رواياته، وأشهرها رائعته «قلب الظلام» ... وثمة من الأدباء العرب صالح مرسي وحنا مينا وغيرهم.

وحي بحري بالإسكندرية هو الأرضية لمُعظم ما كتبتُ من إبداعات. وقد أردتُ في رباعية بحري بأجزائها: أبو العباس – ياقوت العرش – البوصيري – علي تمراز، أن أكتب فصولًا مستقلة، تتكامَل في تصوير حي بحري الذي أحببتُه، وامتداده الطبيعي إلى المكس، أو إلى الرمل.

قوام الرباعية هو الحنين إلى الماضي، إلى الزمان الماضي، والمكان الماضي. الجو حافل بالأسطورة والصوفية والرموز والخوارق والتأمُّلات الميتافيزيقية والتطلُّع والخنوع وطلب المدد.

أقدمتُ على الكتابة، وفي داخلي أصداء من جسرٍ على نهر درينا لإيفو أندريتش، ذلك الجسر هو البطل في رواية أندريتش. أزمعت أن يكون حي بحري بالإسكندرية هو البطل في الرباعية، أن أكتب فصولًا مُستقلة، لوحات تُصوِّر الحياة في الحي عقب الحرب العالمية الثانية. لا صِلة بين الكثير من اللوحات، فلا يكاد القارئ يتبيَّن ما يربط بينها. عُنيت بالوحدة الداخلية، سواء على مستوى المكان، أو الشخصيات، أو الجو العام، بحيث تتكامَل الفصول — أو اللوحات — في بناء روائي يهبنا لوحةً مُتسعة الأبعاد والتفصيلات لهذا الحي الذي عشتُ فيه طفولتي وصباي وشبابي الباكر. وما زلت أحيا فيه — رغم البعد — ويحيا فيَّ، حتى الآن.

حين بدأتُ في كتابة أجزاء رباعية بحري، كان همِّي أن أصف الأشخاص القريبين منِّي، والذين ألفتُ رؤيتهم في جوامع بحري وميادينه وشوارعه وأزقته، وصيادي الجرافة بين الكورنيش وشاطئ البحر، والأماكن المرتبطة في وجداني بذكريات باقية. ولعلِّي أعترف أني حاولتُ أن أضمِّن الرواية — في سياق السرد — الكثير من المعارف البحرية (اكتشفت

— وأنا أُراجع البوصيري — أني كررتُ اسمَي لوحتَين كتبتُهما في ياقوت العرش. فكرت في استبدالهما، لكنني شعرتُ أنه من الصعب أن أختار غيرهما للوحتَي البوصيري).

الرباعية فصول مستقلة، في أجزاء منفصلة، لكن الفصول، والأجزاء، مُتصلة بشكلٍ وثيق. إنها تُمثل — في مشهدها الكُلي — صورة للحياة في بحري، في الفترة ما بين نهايات الحرب العالمية الثانية إلى قيام ثورة يوليو. ولأن بعض الفصول جاءت أقربَ إلى القصة القصيرة، فقد نشرها «الأهرام» باعتبارها كذلك.

أضيف أنه لم يكن واردًا حتى مجرد الإفادة من التجربة المحفوظية في ثلاثية بين القصرين. قرأتُ أجزاء الثلاثية، فأحببتُها، وهي — حتى الآن — من أهم الإبداعات «العالمية» التي تُمثل امتدادًا أشدَّ تفوقًا لإبداعات بلزاك وزولا وستندال وغيرهم من روائيي الواقعية الطبيعية. بحري في روايتي هو البطل، السيد. أما ثلاثية محفوظ فإن المكان يظلُّ في خلفية المشهد الذي يُمثل تكويناته أفراد أسرة أحمد عبد الجواد، بداية بالأبوين، وانتهاء بالحفدة، مرورًا بالأُسَر التي ارتبطت بها بالقرابة والمُصاهرة.

ما كدتُ أستعيدُ بعض الشخصيات التي تصورتُها سدى روايتي، حتى تبدَّى أمامي الحي بأكمله: الميادين، الشوارع، الحواري، الأزقة، المقاهي، البنايات، الأسواق، الجوامع، المقامات، الأضرحة، الزوايا. استعدتُ بحري الذي فارقتُه، وإن لم يُفارقني، الجزئيات والمُنمنمات والتفصيلات، ما غاب عن الذاكرة فتصورتُ أني نسيتُه، تشوش — للأسف — بزياراتي المتقاربة أو المتباعدة إلى الحي، عمليات الهدم والبناء والمحو والتعديل. حين بدأتُ الكتابة، وتركت العمل يكتب نفسَه — عادة أَلِفتُها — قوَّضَت الملامح القديمة ما طرأ على الحياة، كأنها لم تتأثر بما لحِقَها من تبديل. حتى الشخصيات التي رحلت منذ سنواتٍ بعيدة، نفضت عنها غبار النسيان، وعادت إلى الأوراق تتحرك، وتتكلم، وتفعل الخير والشر، وتقدِم على الخطر، وتؤثر السلامة، تُشكل مشهدًا بانوراميًّا، فرضت ظروف النشر تقسيمَه إلى أربعة أجزاء.

أُنسية ليست مُومسًا على أي نحو، ليست حتى مومسًا فاضلة، وليست — بلُغة علم الاجتماع — ضحية بريئة، لكنها فتاة من الطبقة الأدنى، واجهت مأزقًا صعبًا، بذلت أعوامًا من حياتها للتغلُّب عليه. وعندما تصوَّرَت أن ذلك ما حدث، واجهت مأزقًا أشدَّ قسوة، وهو أنها قد تعود إلى ما كانت فيه لو لم تُنجِب، لو لم تهَب الرجل مطلبَه في الولد والامتداد والخلود. وقد تطلَّع سيد الفران إلى الولد والامتداد لأنه — على حدِّ تعبيره

— كان مقطوعًا من شجرة. وربما لامس المرء الوهم للخلاص من الواقع، كما فعل حمدي رخا. وحين يعجز المرء عن مواجهة الخطر أو الظلم، فإنه قد يلجأ إلى قوةٍ عُليا يجدُ فيها الحماية والأمان، وهي الصوفية. وهو ما فعله علي الراكشي عندما أجاد الحاج قنديل حصاره، فوجد الملاذ في كلمات يوسف بدوي، وفي قراءة كتب الصوفية وممارسة طقوسها. وحين ضاقت السُّبل بجابر برغوت، فإنه لجأ للسفر إلى القاهرة، يضع بين أيدي سادة الديوان الذي ترأسه السيدة زينب مشكلاتِ الناس وما يُعانون. وكما يقول إيفانز ريتشارد فإن «مواجهة الإنسان للأزمات والكوارث يؤدي إلى شعوره بالخوف والقلق، وأنه لا يستطيع أن يُسيطر على مشاعره، ويقضي على يأسه، إلَّا عن طريق تكوين الشعائر الدينية». واللافت أن عدد أعضاء الطرق الصوفية في مصر قد تزايد بعد نكسة ١٩٦٧م بنسبة ٢٥٪ (البناء الاجتماعي للطريقة الشاذلية في مصر — فاروق أحمد مصطفى — ١٩٨٠م). ولا شك أن الصوفية والأولياء والموالد والأذكار وغيرها من المظاهر الدينية أبعاد ثابتة في حي بحري. ثمة أبو العباس والبوصيري وياقوت العرش وكظمان ونصر الدين وعشرات من الأولياء الذين يَحظى بحري بوجود أضرحتهم ومقاماتهم، وبملايين المريدين والزوَّار من طالبي البركة والمُكاشَفة والنُّصفة والمدَد. ويربط حسن الساعاتي بين وجود عدد كبير من المساجد في بحري وبين استقرار الحياة في الحي، وزيادة كثافته السكانية، لأن أضرحة الأولياء تكون مراكز جذب للسكان، باعتبار أن الأهالي يُنزلونهم من أنفسهم منزلةً عظيمة، لأنهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وكان ذلك ما حدث في رائعة يحيى حقي «قنديل أم هاشم» حين حرص الجد — محسوب السيدة زينب — على الإقامة بجوار مسجدها. سيدي الأنفوشي له — في قلعة قايتباي، في الطرف الشمالي لمدخل الميناء الشرقية — مسجد وضريح ومقام، لكنه — دونًا عن جميع الأولياء — بلا أتباع ولا مُريدين، بلا دعوات وابتهالات وتهدُّجات واحتفالات مولد ونذور وأذكار. حياته لا يذكرها أحد: من هو؟ أصله؟ فصله؟ كراماته؟ سيرته؟ الرواية — أصلًا — غير مؤكدة. ربما الأنفوشي حقيقة، وربما رفاته في الضريح الذي يتوسط فناء مدرسة البوصيري الإلزامية بالموازيني. لكن مسجد قايتباي الصغير بلا اسم — مُعلن — لولي. ثمة رأي أن اسم الأنفوشي هو «الكهنفوشي»، وهو اسم فارسي لشيخ عجمي. والاسم موجود في كتاب «الضوء اللامع» للسخاوي. الهوية المجهولة حياة سيدي الأنفوشي. البداية منبعها الغموض، مصبُّها الغموض كذلك، وربما لم يكن في حياة الإسكندرية وليٌّ بهذا الاسم. أبو العباس المُرسي، حارس الإسكندرية، وسُلطانها، وكبير أوليائها، وحبيب

الغلابة والمُنكسرين والمظلومِين والتائبين، والباحثين عن الذُّرية الصالحة والبرء من العلة والسقم. نسيج القصة رائق، متماسك، لا ينقص خيطًا: رحلة الزهد والتصوُّف من مرسيه إلى الإسكندرية: «فو الله ما رأيتُ العز إلا رفع الهمة عن الخلق، ولا السلامة في الدنيا إلا بترك الطمع في المخلوقين». انتشار الدعوة، تكاثر المريدين والأتباع. القسَم بياقوت العرش لا يمتدُّ إلى خواء، وإنما يمتدُّ إلى حياة طيبة، متكاملة. صديق المرسي ونديمُه وصفيُّه وتلميذه. لم يكن يؤذن لأية صلاة إلَّا إذا تناهى الأذان من العرش الإلهي. بُردة البوصيري الشهيرة تُحيط بصحن جامعه. علي تمراز مجذوب، وله كرامات، لا يدري أحدٌ من أين جاء، ولا كيف سارت حياته إلى الموت. حتى سيدي جابر الذي ترقُد رفاته في الجانب الآخر من المدينة، له أصل، وإن كان يصعب تحديده. اجتهادات تؤكد أنه الرحالة ابن جبير. اجتهادات مُقابلة، واثقة، ترى أنه سيدي جابر الأنصاري. بل إن بعض هؤلاء الأولياء ترتبط مكاشفاته بالبحر. كان الشيخ على الصياد — على سبيل المثال — صيادًا موفقًا. وكان يُحب أن يخلو إلى نفسه بعيدًا عن الناس حتى أَلِفتهُ طيور البحر، فكان يُخاطبها بلسانها. وذات يومٍ أدركه المرض، فتبارت الطيور في إحضار الأعشاب الشافية من الجُزر البعيدة عبر الأفق، وراحت تنثُرها بين يدَيه متوسلةً إليه أن يُجرب علاجه بها، فقال لها: إذا كان قد حان أوان الشفاء، فسأُشفى بدونها، وإن لم يكن قد حان، فما الفائدة؟ وظلَّ على مرضه حتى لفظ آخر أنفاسِه عند الشاطئ. وبكتْهُ الطيور البحرية، ودعت الله أن يجعل مثواه في مملكتها، فاحتضنته مياه البحر، وصار الوليَّ الوحيد الذي تغمُر المياه ضريحَه. ويُحرِّم الصيادون على أنفسهم محاولة صيد آلاف الطيور التي تحجُّ إلى حرم الضريح.

ما أوجه الاتفاق — والاختلاف — بين رباعية الإسكندرية ورباعية بحري؟

صدمَني السؤال في البداية، وربما تضايقتُ منه، ثم ألفتُه بالمعاودة. أُصارحك أني تعمدتُ ألَّا أقرأ رباعية الإسكندرية حتى لا أقع في شُبهة تأثُّرٍ — قراري بكتابة رُباعية بحري يعود إلى مطالِع حياتي الأدبية — وبالذات في ضوء الحفاوة النقدية الواضحة، والتي اعتبرت رُباعية داريل من أعظم إبداعات القرن العشرين.

ثم حاولت — بعد أن صدرت رباعية بحري — أن أُفتش عن جوانب الاتفاق والاختلاف، لا كناقد، فقد مللتُ التأكيد أنه حتى فوزي بجائزة الدولة في النقد لا يُلغي تفهُّمي لقُدراتي النقدية، وأني سأظلُّ دومًا خارج أسوار النقد!

يقول جون فويلز: «إن المدن المنفتحة هي أُمهات للمُجتمعات المُستنيرة، ووجود مثل هذه المدن هامٌّ بشكلٍ خاص للأدب. ولهذا فإنني أعتقد أننا نتعشَّق أوهامَنا عنها، ونغفِر لها الكثير من خطاياها». يضيف فورستر: نحن حين نفعل ذلك مع الإسكندرية، فإننا لا نُلام، لأنها النموذج الأصلي للكوزموبوليس وانصهار المُتناقضات (الإسكندرية تاريخ ودليل–١١).

واللافت أن كلَّ المُقيمين في بنسيون ميرامار: ماريانا، وعامر وجدي، وطلبة مرزوق، ومنصور باهي، وحُسني علَّام، أقاموا في البنسيون لهدفٍ شخصي، لا صِلة له بالجماعة ولا مشكلاتها، لا صِلة له بما يجري خارج البنسيون. دعكَ من زهرة، فهي قد جاءت إلى البنسيون لتؤدي الدور الذي رسمَه لها الفنان، أو رسمَتْه لها تطوُّرات الأحداث. إنها ضحية في كل الأحوال. حتى بائع الصحف محمود أبو العباس، اتخذ من الإسكندرية موضعًا للحصول على مكاسب شخصية بطُرق غير شريفة.

وإذا كانت صلة شخصيات ميرامار نجيب محفوظ بالإسكندرية هي صلة هامشية، حيث اختاروا الإقامة في الإسكندرية كمنفى، لا تشغلهم حياة ناسِها اليومية، ولا مُشكلاتهم. فالبنسيون بالنسبة لمن يُقيمون فيه — على حدِّ تعبير سيزا قاسم — مكان سلبي أقرب إلى محطة السكة الحديد، حيث يتقابل — للحظاتٍ معدودات — المسافرون، كلٌّ يلهث في طريقِه (روايات عربية، روايات مقارنة، ١٦١). إذا كان ذلك كذلك، فإنه من الصعب إهمال التأثيرات الأجنبية في حياة الإسكندرية. وعلى سبيل المثال، فإن يومَ الأحد في الإسكندرية يختلف عن اليوم نفسه في بقية المدن المصرية. الشوارع خالية نِسبيًّا، والكثير من المتاجر يُغلق أبوابه، ذلك لأن التأثيرات الأجنبية التي تحقَّقت من خلال «مواطنة» أعداد هائلة من الجاليات الأوروبية لم تندثِر من المدينة بصورةٍ كاملة بعد. لكن الصورة التي رسمَها داريل في رباعية الإسكندرية — على حدِّ تعبير صلاح عبد الصبور — تنتمي إلى داريل أكثر ممَّا تنتمي إلى الإسكندرية «فالإسكندرية ليست هي مدينة هذه الحفنة من الأجانب والمُتمصرين، وليس هي مخادع اللذة وأندية الشواذ والمُغامرين، بل هي مدينة مُمتدَّة مليئة بالرجال والنساء الذين يصنعون الحياة، ويأكلون العيش بعرق الجبين» (عالم القصة، العدد الرابع). ويقول صديقي الكاتب المسرحي الكبير ألفريد فرج «إن انتباه داريل — قبل أن يكتب رباعية الإسكندرية — كان مُتجهًا إلى مجتمع الأجانب والمُتمصِّرين دون المِصريين. المعنى نفسه يورده إدوار الخراط، فإسكندرية داريل هي أسطورته الشخصية أولًا وأخيرًا، أسطورة تكوَّنت من مشاهد خارجية التقطتْها عين أجنبية، ومشاهد وأخيلة

تخلَّقت في نفسٍ منفصلة محجوزة عن قلب البلد وروحها، بانحيازات رازحة وراسخة. داريل لم يعرف من الإسكندرية إلَّا سطحها الخارجي، قشرتها السطحية: بيوت ومكاتب الدبلوماسيين والموظفين والمُلَّاك. الفئة الفوقية من المتمصِّرين الذين لم يعرفوا من مصر سوى أنها البقرة الحلوب، يطفون على عباب مدينة تمور بالحياة، كالزبد أو الرغوة. الشوارع والبيوت — والأحياء أحيانًا — التي كانت محرَّمة على أولاد البلد. ما كتبه عن الإسكندرية هو موقع أو حالات نفسية للأجانب ولأشباه المصريين، أو مجرد استعارات وأقنعة مصنوعة وزائفة للمصريين أو المُتمصِّرين، الذين لم يعرفوا من مصر إلَّا كيف يستغلُّونها. أما الوطنيون، فهم الخدم والبغايا وغيرهم ممن يَحيون في الهامش، وينظُر إليهم الكاتب بنفور، وبعدم مبالاة في الوقت نفسه (الأهرام ١٦ / ٧ / ١٩٩٦م). ويضيف إبراهيم فتحي أن رباعية داريل «تموج بأنماطٍ عجيبة من البشر لا تجد بينها وجهًا واحدًا نتعاطف معه، أو يعكس صورتنا الحقيقية. لقد كان داريل يُصور الإسكندرية المُستلقية في حلمها الأزرق كأنها إحدي الزواحف القديمة، يغمرها الضوء البرونزي الذي تُلقيه البحيرة» (العالَم الروائي عند نجيب محفوظ، ١٢٦). لقد اختار داريل شخصياته كلها من جو الأقليات الوافدة إلى الإسكندرية: اليهود واليونان والإيطاليين والفرنسيين والأرمن والإنجليز وغيرهم، ومع ذلك فإن اختياره اقتصر على فئة من الوافدين انغلقت على نفسها تمامًا، فهي تجد في الإسكندرية مكانًا، محلَّ إقامة، دون أن تُحاول التفاعُل معها كشعبٍ أو كمدينة (أفكار معاصرة، ٢٤٢-٢٤٣). ولعلَّ التعبير «ما قلَّ ودل» يصدُق على ما كتبَه الكاتب الصحفي عمرو عبد السميع بأن مُعظم شخصيات رباعية داريل من الأرمن والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من أبناء الجاليات، وأن الرواية قد امتلأت بإساءات بالِغة للمصريين، وبدت مُترعة بنظرة شديدة السوداوية للبلد، ولقاطنيه، واخترعت أحداثًا عجيبةً عن معاونة الأقباط للعصابات الصهيونية في فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨م (الأهرام ٢١ / ٢ / ٢٠٠٦م)

وعمومًا، فإن داريل كتب عن الإسكندرية، مُستمدًا من ثقافته لا من تجاربه، ومن ثم فقد جعل الإسكندرية مدينة إغريقية أو متأغرقة! إنها — على لسان كليا — تتراوح بين الوهم والحقيقة، بين الواقع والصور الشعرية التي يُثيرها اسمها بذاته في الأعماق (كليا، ١١).

ولعلَّنا نجد تعبيرًا عن شخصية لورنس داريل، في حديثه عن نفسه بأنه إنما يكتب «من أجل الشيكات التي تسد متطلبات الغاز والنور والتدفئة، إنني أكتب لأعيش».

والحق أنه من الصعب أن أُجري شخصيًّا مقارنة بين ما كتبتُه وما كتبه مبدعون آخرون، لكن الذي أستطيع تأكيده أن الكتابة عن الإسكندرية — وبحري تحديدًا — حلمي القديم، الجميل، الذي يرافق محاولاتي الإبداعية منذ بداياتها. السؤال: لماذا، لم أُناقِشه — بيني وبين نفسي — على الإطلاق. فقد كانت الكتابة عن حي الطفولة والنشأة والسمات المُميزة والبيئة التي تختلف عن مثيلاتها في أحياء الإسكندرية الأخرى ... كانت شيئًا أشبه بالقدر ... لكنَّني أملك — فيما أقدِّر — طرح بعض الآراء التي تناولت رباعية داريل، ثم أترك للقارئ — قارئ أجزاء الرباعية وقارئ هذا المقال — أن يتعرَّف إلى ما ينشده من أوجه الاتفاق والاختلاف.

يقول الناقد الإنجليزي جلبرت فيلبس: «إن داريل يبذل قدرًا كبيرًا من الطاقة في رباعية الإسكندرية، لكنها أقرب تمامًا إلى أن تكون طاقةً ذهنية، ناشئة من الذهن، وموجهة إليه، ولا يمكن مقارنتها بذلك التعاطف الخيالي العميق الواسع المدى الذي يميز القصة العظيمة في أي عصر، والقيم الإنسانية في رواياته هزيلة ومُهتزة، فالروايات تُوهم بأنها تُحلل الحب، ولكن أين هذه الأمثلة للعلاقات الإنسانية التي يُمكن وحدَها أن تدعم الدعوى وتؤيدها؟ ... إن المهارة هنا مهارة ذهنية، أو متعلقة بالسلوك الجنسي المُطلق في الحب. إنه جنس في الرأس، إن صح التعبير (مجلة «نادي القصة»، نوفمبر، ١٩٧٠م).

في تقديم داريل لكتاب م. فورستر «الإسكندرية تاريخ ودليل» يؤكد أن المدينة العريقة هوت إلى قاع النسيان بقدوم العرب «مع وصول عمرو بن العاص وفرسانه». قدم داريل الإسكندرية المدينة، التي لا هي باليونانية ولا السورية ولا المصرية، لكنها خليط، شيء مشترك من كل هؤلاء، بل إن بعض شخصياته الأجنبية — ومعظم شخصيات الرواية من الأجانب! — كانوا يجدون في فلسطين ملاذًا مُرتقبًا لليهود، وللجاليات الأجنبية في مصر «لو استطاع اليهود أن يكسبوا حُريتهم، فإننا جميعًا سنكون في يُسر وهناء. إنها أملُنا الوحيد» (ماونت أوليف، ٢٥١). لكن مدينتي هي الإسكندرية السكندرية، الإسكندرية المصرية التي ينتمي أهلها إليها بتعاقُب الأجداد، وبالميلاد والطفولة والنشأة وأُفق المستقبل.

نحن نجد الإسكندرية السكندرية، الحقيقية، في أعمال إدوار الخراط ومصطفى نصر ومحمد الصاوي ومحمد حافظ رجب وصالح مرسي وأحمد حميدة وإبراهيم عبد المجيد ورجب سعد السيد ومحمود عوض عبد العال وعبد الفتاح مرسي ومنير عتيبة وحنان سعيد وعبد الفتاح رزق ومحمد عباس على، وغيرهم. أنت تتعرف — في أعمال هؤلاء

الأدباء — إلى الإسكندرية المُوظفين والصيادين وباعة السمك والتجار والحرفيين وفِرَق الصوفية والباعة السريحة وعمَّال الميناء وكتَبَة المحاكم وروَّاد المقاهي ... إلخ.

وبالنسبة لي، فقد وهبَني البحر رحابة الأفق. أرفض أن تُقيِّد حركتي ولا آرائي، ولا أن تحدَّ انطلاقَ مخليتي محظوراتٌ من أي نوع. أنا أكتب حتى ما قد يرفضه الرقيب في داخلي، انعكاسًا لمطالب الرقيب المجتمعي. لا يَشغلني إن وجد سبيله إلى النشر، أم أودعتُه أدراج مكتبي. وما أكثر ما تحتفظ به هذه الأدراج من أوراق.

ينقل جبرا إبراهيم جبرا عن دبلوماسي من أوروبا الشرقية قوله: «كلما اقترب الإنسان من البحر المتوسط، ازداد تشبُّثه بالحياة، وكلما ابتعد عنه، هان عليه الموت». والحق أنه إذا كان البحر المتوسط صغيرًا للغاية، فإن عظمته وامتداد تاريخه — والقول للورانس داريل — يجعلاننا نتخيَّله أكبر مما هو عليه حقًّا (بلثازار). وقد تحققت العظمة وامتداد التاريخ على أيدي هؤلاء الذين يَحيَون على سواحل المتوسط، والسكندريون — كما تعلم — يحيون على سواحل المتوسط. أنا أُحب البحر المتوسط لأنه البحر الذي تطلُّ عليه الإسكندرية. أُحب أُفُقَه اللامتناهي. أقرأ عن مُدنه وجُزره وأسماكه. أقرأ حتى عن النفايات التي تقذف بها ناقلات البترول في مياهه، وعن التلوث البيئي، والمُستقبل المحفوف بالخطر (وهو ما استفزَّ الفنان — حسب اجتهادي الشخصي — في روايتي «غواية الإسكندر»).

يتحدَّث داريل عن الإسكندرية في «جوستين» بأنها مدينة تم بناؤها كقلعة حصينة تصد طوفان السود الأفارقة، لكن هؤلاء السود — بأقدامهم الناعمة — بدءوا في التسرُّب إلى الأحياء الأوروبية. ولأن «المسلمين» تمكَّنوا من مقاليد الأمور، عقب الحرب العالمية الثانية، فقد صارت المدينة أقلَّ شأنًا عن ذي قبل. أعاد داريل النغمة التي عزفها — قبل عشرات الأعوام — مفكرون وكتاب أوروبيون، وأنهم شعب من العبيد «لا تُوجَد لديهم ذمة أو حياء بشري»، وأنهم «جنس بائس» (بيير سوليه: مصر ولع فرنسي، ٢٢٠). بل لقد وجد هؤلاء الكتَّاب في البنية الهيكلية للمصريين، تماثلًا مع البنية الهيكلية للحيوانات التي تعيش معهم (المرجع السابق، ٢٢١). وفي الصفحات الأولى من «جوستين» يصف داريل الإسكندرية بأنها قد أصبحت مُعذَّبة بالتراب، وأنها صارت ملكًا للمُتسولين، وأنها «بركة من المياه الآسنة» و«مجرد مرحاض عمومي كبير». مقولة رجل مخابرات استعماري، تُحزنه الرؤية التي تستنِد إلى شواهد كثيرة، بقُرب غروب شمس الاحتلال الأجنبي، لتُصبح

الإسكندرية — ومصر كلها — ملكًا لأبنائها، وهو ما تحقَّق على المستويَين العسكري والمدني، عقب العدوان الثلاثي في ١٩٥٦م.

الإسكندرية البعيدة عن الأحياء الوطنية — في رواية داريل — ليست مدينة مصرية، لكنها مدينة متأغرقة، هي ليست إسكندرية القرن العشرين، ولكنها إسكندرية القرون الوسطى. فحين انهارت دولة الإسكندر المقدوني، واقتسمها أتباعه، ازدهرت عواصمهم الصغرى، مثل أنطاكية وإسكندرية وغيرهما من مدن الشرق الأوسط القديم. وكانت هذه المدن تحاول أن تتمسَّك بطابع سادتها الإغريقي، وتحاول أن تتمثل الثقافة الإغريقية وتُعيد بعثَها في أثوابٍ جديدة ومظهرٍ جديد. وحين انتشرت المسيحية في هذه المدن تصالحَت المسيحية مع النزعة الإغريقية، ومن ذلك كله وُلدت نزعتان دافقتان قويتان، كانت أولاهما عطاءً مسيحيًّا في أصله، مختلطًا بالوثنية القديمة، وذلك هو فلسفة الأفلاطونية الجديدة التي ابتدعها إغريقي سكندري هو أفلوطين. وكانت ثانيتهما عطاءً وثنيًّا في جوهره، مُحتكًّا بالمسيحية الناشئة، وهي النزعة الحسية المُسرفة، حين تتوزع بين صبوات الجسد، ثم تتلذَّذ بعد ذلك بالندم على الخطيئة. ومن استشراف الأفلاطونية الجديدة وتصوفها وإيمانها بالروح، ومن إيمان الوثنية القديمة بالحس والشهوة والخطيئة ولدت الروح الهلنستية أو المُحاكاة للهيلينية، والمتأغرقة أو المُحاكية للإغريقية. ولأن داريل كان يكتب عن الإسكندرية مُستمدًّا من ثقافته لا من تجاربه، فقد جعلها مدينة هلنستية أو متأغرقة ... الإسكندرية — في تقدير لورانس — عاصمة أوروبا الآسيوية، حيث تُهيمن الفرنسية والإيطالية واليونانية على المشهد كله، وكل شيء مصبوب في قالب أوروبي (مانت أوليف، ١٨١). بل إن «جوستين» تتشابه مع الإسكندرية في أن لكلٍّ منهما نكهة قوية، دون أن يكون لها شخصية حقيقية (جوستين، ١٥٤). ويصف داريل إسكندرية الحرب العالمية الثانية بأنها عاصمة أوروبا الآسيوية. إذا كانت القاهرة تصبُّ حياتها كلها في قالبٍ مصري، حيث العربية هي لغة الجميع، فإن الأحاديث في الإسكندرية يُهيمن عليها الفرنسية والإيطالية واليونانية «الجو المحيط هنا، والسلوك الاجتماعي، وكل شيءٍ مختلف. إنه مصبوب في قالب أوروبي، حيث تعيش الإبل وأشجار النخيل وأهل البلد المُتلفعون بالعباءات، يعيشون فقط، وعلى نحوٍ ما، كحاشيةٍ وضَّاءة ملونة، كخلفيةٍ وضَّاءة ملونة، كخلفية قماشية لحياة مقسَّمة إلى أصولها المختلفة» (مانت أوليف، ١٨١). إنها «خمسة أجناس، وخمس لغات، ودستة من المذاهب: خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزِجة عبر البحر خلف حاجز الميناء. إلَّا أنَّ هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليوناني الشعبي متميزًا فيما بينها»

(جوستين، ١٢). ويقول: «إن عقل مصر هو مجتمعها الأجنبي» (مانت أوليف، ١٣٠). ويتحدث الراوي في «كليا» عن نسيم الذي بدأ «المصريون» في تجريده من مُمتلكاته، فانشغلت الإسكندرية كلها في الدفاع عن عزيزها (كليا، ١٤٢)، ومن الواضح أنه عُني بكل الإسكندرية الوافدين إليها من أبناء الجاليات الأجنبية. وإذا كان اليهود — في ثنايا الرواية — يتطلَّعون إلى أرض الميعاد، فإن الأقباط يُمثلون أقلية مُستضعفة ومقهورة. الرواية تحفل بعبارات التكريس للعداء المُختلق بين المُسلمين والمسيحيين. والكاتب يرى أن «الإسكندرية التي تبدو مُسالِمة في ظاهرها، لم تكن — في الحقيقة — مكانًا مأمونًا للمسيحيين» (جوستين، ١٦٩). يقول على لسان قبطي مصري: «إننا الإخوة المسيحيين طابوركم — الأجانب — الخامس في مصر» (مانت أوليف، ١٤٣). ويتحدَّث عن حركة سِرية ينظمها الأقباط للاستيلاء على الحكم، وتحرير البلاد من المُسلمين، تستعين في ذلك بتسليح البدو (مانت أوليف، ٢٧٥).

عاش داريل في الإسكندرية فعلًا لوقتٍ قليل خلال الحرب العالمية الثانية حين كان يعمل في المخابرات البريطانية، ولكن هذه الحياة المعزولة بطبيعتها، الضائعة في صمت التكتم والتآمُر لم تُتح له الفرصة لمعرفة الإسكندرية بناسِها الخُلص، ونبضها الصادق، فقد كان كل من يراهم فلولًا من المُتمصِّرين والأجانب والمغامرين والجواسيس المزدوجين، وكل أولئك البشر حين ينتظم خيطٌ فني لا يصنعون إلَّا عملًا وثنيًّا مليئًا بالخطيئة والندم مثل «رباعية الإسكندرية» (مجلة «عالم القصة»، العدد الرابع). يضيف أحمد بهاء الدين — وأعتذر لأني سأنقل نصًا مطولًا، لكنه مُهم للغاية — أن داريل يرسم للإسكندرية صورة بنفسجية بديعة، بكل ما فيها من تفصيلات وضواحٍ وأسماء: محطة الرمل وشوارع سعد زغلول وصفية زغلول والسبع بنات والنبي دانيال وفندق سيسل ومطاعم المكس المُطلة على البحر ورمال العجمي البيضاء، ولكنه يرسم للمجتمع الوطني صورة تنزف بالصديد، لا يكاد المرء يعثر في رواية على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف. كل البشر عنده تقريبًا مشوَّهون من الداخل، مُستسلمون تمامًا للضعف والنقائص بدون أية مقاومة أو صراع، واستكمالًا لهذا الإحساس حشد الكاتب في قصته عددًا لا مثيل له من ذوي العاهات: ليزا الجميلة الفاتنة عمياء، وسميرة عذراء الإسكندرية بدون أنف، نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتَين، نسيم نفسه يفقد إحدي عينَيه خلال الغارات، وتنتهي القصة وهو بعين واحدة، و«كليا» الرسامة تنتهي القصة ويدُها التي ترسم بها مُصابة (أفكار معاصرة، ٢٤٨–٢٤٩). وانطلاقًا من ذلك كله، فإن أحمد بهاء الدين يُعلن ثقته في أن التاريخ الأدبي لن يضع داريل في مصاف الأدباء العظام، لأن كاتب القصة العظيم

— في تقدير بهاء — لا بد أن تكون فيه صفة مهمة جدًّا، وهي الإحساس بأنه يتعاطف مع الإنسانية المُمثَّلة في أبطال قصصه، كلهم، أو بعضهم. داريل لا يروي قصة الحياة، لكنه يروي فضيحتها، وهو يُحاول أن يدسَّ في نفس القارئ إحساسًا بالشماتة لا بالعطف (المرجع السابق).

من ناحيتي، فقد أدهشني أن داريل جعل السيالة حيًّا للبغاء، وهو حي له عاداته وتقاليده ومعتقداته الدينية. برَّر داريل ذلك الخطأ المعيب في حوارٍ مع صديقي فتحي الإبياري بأنه اقتبس «الصورة» من حي كلوت بك القاهري! … وكانت ميليسا في رباعية داريل مُومسًا محترفة، فاضلة، ولم تكن أنسية — كما تعرف — كذلك. لم تكن أنسية مومسًا، إنما هي فتاة مصرية عانت مأزقًا، وأمضت الكثير من سِني عمرها في محاولة اجتيازه.

تبقى ملاحظة مهمة يجدُر بي أن أشير إليها: إن رباعية بحري تختلف عن رباعية داريل وميرامار نجيب محفوظ ورجل فتحي غانم الذي فقد ظلَّه، في أن الفصول/اللوحات منفصلة، متصلة، وأن الرواية لا تتكرَّر عبر تعدُّد الأصوات، فالصوت واحد سواء أكان الراوي العليم، أو الراوي المشارك، أو من خلال التداعي، والمونولوج الداخلي. روايتي «بوح الأسرار» هي ما ينتسب — بالفعل — إلى تعدُّد الأصوات. الحادثة الواحدة يتعدَّد رواتها، كلٌّ من وجهة نظره. لذلك فإني أسمح لنفسي بأن أختلف مع صديقي الناقد شوقي بدر يوسف في أن رباعية بحري تحتفي بالشكل نفسه الذي سبق أن ظهرت عليه رباعية داريل (الرافد، ديسمبر ٢٠٠١)

أصارحك أني لم أفهم قول أ. م. فورستر «إن السكندريين لم يكونوا أبدًا مصريين حقيقيين» (الإسكندرية تاريخ ودليل، ٤٨). دعك من حكاية الموقع الفريد، وغيرها من التعبيرات التي تحاول أن تنزع عن الإسكندرية صفتها الوطنية (لا يخلو من دلالةٍ وصف أ. م. فورستر، الرياح الشمالية الباردة بأنها القديس — الولي — الحقيقي الحارس للإسكندرية). وبالتأكيد فإن أهل الإسكندرية — أو غالبيتهم — ليسوا امتدادًا خالصًا لأبناء الإسكندرية القديمة. ثمة القادمون من الصعيد ومدن الدلتا. ومع اعتزازي بسكندريتي، وأنها كانت هي بداية تعرُّفي إلى كلمة وطن، فإنه من الصعب أن أُهمِل انتماء أبي إلى عائلة من بركة غطاس بأبو حمص، ومولد أُمي في دمنهور.

كم حزنتُ عندما قرأت في الصحف عن بركة غطاس، باعتبارها من القرى المنسيَّة في جغرافيا مصر. لم يشفع لها تصدِّيها لقوات الفرنسيين، بحيث أقدموا على محوِها من الخريطة، لتُبنى من جديد، ولا زكَّتها عمليات التطوير التي شملت مدينة دمنهور بخاصة، ومدن وقرى البحيرة بعامة. ظلَّت — فيما يبدو — على حال التخلُّف، حتى تذكَّرها مسئولو الميديا، والباحثون عن إنجازاتٍ تُنسب إليهم. نُظمت المواكب السياسية إليها، وجري تطوير ما بها من منشآت البنية التحتية: المدارس ومكتب البريد والمساكن وغيرها، مما تباهي المسئولون بافتقاده قبل أن تمتدَّ إليه أيديهم — أيدي الخير! — بالإصلاح والتعمير وإعادة البناء!

والحق أني — قبل نشر هذه الأنباء — لم أكن أعرف شيئًا عن أحوال بركة غطاس، صورتها الجميلة كونتُها من أحاديث أبي (تعود إلى أكثر من نصف قرن) وانسقْتُ وراء الصورة الجميلة، فجعلتُ محمد أفندي الكاشف بطل روايتي «البوصيري» (رباعية بحري) يحنُّ للعودة إلى بركة غطاس، وقضاء أيامه الأخيرة بين خضرتها وناسها الطيبين وهنائها!

أذكر قول صياد حلقة السمك في ثقة، إن السكندري الحقيقي أصله من رشيد. لا يخلو التعبير — بالطبع — من مبالغة، لكن المعنى الذي يُهمني إظهاره أن الكوزموباليتينية التي كانت لإسكندرية ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما إلى حرب ١٩٥٦م، قد انتهت إلى أهلها الوطنيين (أذكِّرك بروايتي «الشاطئ الآخر»). وأعداد كبيرة منهم ليست من مواليد المدينة، أو أن آباءهم ليسوا كذلك. الإسكندرية تكوين في الجغرافية المصرية، قطعة من الزمكانية المصرية. المواطن السكندري هو ابن راقودة وفاروس والصعيد والدلتا والبحر والبادية. هو تلاقي ذلك كله، واختلاط ذلك كله. قال داريل إن الإسكندرية لن تتغيَّر أبدًا طالما استمرت الأجناس تموج هنا كالخمر في دنٍّ من الدنان (كليا، ٧٧). وقد تغيَّرت الإسكندرية. نزحت الأجناس التي كانت تموج فيها، ولم يعد إلا أهلها.

بالتأكيد فإني أنتمي إلى موطني الإسكندرية، وإلى وطني مصر، وإلى قوميتي في امتداد الأقطار العربية بهمومها ومشكلاتها وتطلُّعاتها، وإلى انتمائي إلى المجتمع الإنساني في إطلاقه. ولعلَّ فورستر يدحض رأيه الغريب في تأكيده — هو نفسه — بأن الأجانب لم يختلطوا بأبناء الإسكندرية الأصليين إلا نادرًا (الإسكندرية تاريخ ودليل، ت. حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة).

الصورة لي وأنا أضع ابنتي أمل على صدري، ومياه حمام السباحة تصل إلى ما فوق ركبتي. أعتز بأني فزتُ بجائزة «السير» في الحمام. الحمام ليس جزءًا من قصرٍ أو فندق أو فيلَّا، لكنه جزء من شاطئ سان استيفانو، شيَّدته إدارة الفندق المقام على الناحية المقابلة من الشاطئ، يسبح فيه الأطفال، فلا يُواجهون خطر الغرق. هو حمام سباحة عادي، لكنه أُقيم داخل مساحة البحر، على الرمال المُوصلة بينه وبين اليابسة.

كانت تلك آخِر قدراتي للسباحة في البحر. وكانت ابنتي هي الحجة التي استندتُ إليها، حتى أنزل حوض السباحة المخصَّص للصغار. نزعت ثياب الوقار، وارتديتُ لباس الشاطئ، وتكفل من لا أذكُره بالتقاط هذه الصورة التي تعكس فوزي بجائزة عبور ما بين ضفتي حمام السباحة!

أنا لم أسبح في البحر أبدًا، البحر الذي أعنيه هو المينا الشرقية، أو الأنفوشي، أو أحد الشواطئ المُمتدة حتى المنتزة، معلومة أذكرها وأنا أعاني ارتباكًا حقيقيًّا، فليس من المُتصوَّر أن الكاتب الذي جعل من البحر شخصية رئيسة في العديد من أعماله، تقتصر صِلته بالبحر على تأمُّل أحواله من الشاطئ.

عدم تعلُّم السباحة، وعدم النزول إلى البحر أصلًا، نتيجة من نتائج. قدت السيارة دون أن أقود الدراجة. لم أركب الدراجة يومًا، ولم أمارس رياضات كثيرة مما يُمارسه الأطفال رضوخًا لأوامر أُمي. كانت تخشى علينا نسمة الهواء، تجد في لعبنا مع الأولاد في الشارع الخلفي ما يكفي وزيادة، تطلُّ علينا من نافذة المطبخ على فترات متقاربة، ثم تطمئن إلى أننا لم نخترق الأسوار غير المرئية، المُتمثلة في تقاطعات الشارع الخلفي مع الشوارع الأخرى. هذه هي المساحة المتاحة للعب، وقائمة الألعاب الخطرة تبدأ بركوب الدراجة «تقع على جدور رقبتك»، وتنتهي بلعب الكرة «تيجي الكورة في وشك تضيع لك عينيك»! وكانت طفولتي الشقية تتمرَّد — في معظم الأحيان — على أوامر أُمي الصارمة، وأخرج على النص، بل إني خضت — في المساحة المحددة، والمحدودة — مغامرات خطيرة، منها — كما أشرتُ في كتابي «حكايات عن جزيرة فاروس» — لعبة «شكَل للبيع» التي أقفز فيها على عابر سبيل، يسقط بالمفاجأة، يواجه — في اللحظة التالية — ضربات الأولاد بالعصي التي يحملونها!

لأن القراءة صارت تكوينًا في حياتي في سنٍّ باكرة، فقد غابت عني أهمية تعلم السباحة، واقتصرت صِلتي بالبحر — فيما بعد — على مشاهدته في وقفتي على الكورنيش الحجري للميناء الشرقي وخليج الأنفوشي، أو فلوكة صغيرة داخل الميناء الغربي.

لا أذكر أني ارتديتُ لباس البحر، فضلًا عن السباحة في مياهه. غاية اقترابي منه حيث أجلس على الشاطئ، أقرأ، وأحتفظ بثياب أخي وأصدقائه أثناء نزولهم المياه. إذا كان في شخصية محمد قاضي البهار بضعة منِّي، فقد كان نزول الشاب البحر فعلًا روائيًّا، وليس حقيقة. أكتفي — هذا ما أفعله حتى الآن — بالجلوس على الشاطئ — تحت شمسية في الأغلب — لا أبدل القميص والبنطلون، أرقب البحر والحياة من حولي، وأتأمَّل، وأقرأ، ربما سجلتُ ملاحظات صغيرة في الغلاف الذي أودع فيه الكتاب، فهو يُغني عن نوتة أو أوراق زائدة، ويحُول دون اتساخ غلاف الكتاب من عرق اليدين.

لكن البحر ظل صديقًا مُهمًّا، صيادوه وصناع سفنه وأمواجه وأفقه وقواربه وطيوره وأنواؤه، وما تشغي به أعماقه من حكايات مُثيرة.

أحببت البحر مطلقًا، وحاولتُ أن أُعبر عن هذا الحب في العديد من أعمالي الروائية والقصصية.

الإسكندرية — مثل كل مدن الساحل التي أُتيح لي زيارتها — تنحدِر في اتجاه البحر. كانت تلك صورة الخرائط الأولى التي وضعها علماء البطالمة، ولم تتغيَّر كثيرًا عما كانت عليه. ثمة انحناءات والتواءات، لكن الصورة الكلية لقطع الشطرنج تظلُّ قائمة، وانفراجات نهاياتها تفضي إلى البحر.

في أي موضع في بحري تستطيع أن تري البحر.

أقرأ تعبيرًا مجازيًّا عن المدينة التي تستحم في البحر. بحري يستحم في البحر فعلًا، شواطئه تتداخل مع البحر، تستحم، من جهات ثلاث، فهو شبه جزيرة تستحم في البحر. البحر عندي امتداد لليابسة، وبالتحديد هو امتداد لبحري الصيادين والحلقة والبحارة وعمَّال الميناء والجوامع وأضرحة الأولياء والمقاهي وحكايات الموروث الشعبي. البحر امتداد للبيئة الساحلية، للأنشطة التي تعتمِد على ركوب البحر والصيد. فضلًا عن رائحة الملح واليود والطحالب والأعشاب. الرائحة التي لا يُخطئها أنفي حين أقترب من بحري. تبدو كأصواتٍ هامسة في الميناء الشرقي، ثم تعلو الأصوات، وتتضوَّع الرائحة في الاقتراب من امتداد الطريق إلى معهد الأحياء المائية وقلعة قايتباي، وانحناءة الطريق إلى الأنفوشي.

مفردات البحر هي: الأمواج، الرمال، الأسماك، الطيور، الصخور، الطحالب، الأعشاب، السماء، الشمس، القمر، النجوم، الأفق، السفن، الصيادون، البحارة، عمال الميناء، الموانئ، البواغيز، الفنارات، الحاويات، الأوناش.

البحر مكان وزمان وأحداث وموروث وواقع يومي ودلالات. إنه الرزق والمغامرة والحرية والآفاق اللامتناهية والجمال والخوف والجو المُتمايز، المُعتدل، والنافذة التي تطلُّ على العالم، تناقضاته هي تناقضات الحياة نفسها.

البحر في أعمالي كيان، شخصية، محور، مكان، سيد، يهبُ تأثيراته في البيئة من حوله، ويحرك الأحداث.

تحضرني ملاحظة ذكية أبداها أستاذنا علي الراعي حول مسرحية «مهاجر بريسبان» للكاتب اللبناني جورج شحادة. تقدير الراعي أن «الأدب العالمي كان يكسب كثيرًا لو أن شحادة استخدم قُدراته الكبيرة في ترجمة لبنان إلى العالَم» (الهلال، فبراير، ١٩٦٩م). تقدير الراعي كذلك أن «العالم محتاج إلى أن يتعرَّف على أجزائه الكثيرة المُترامية. وهذه الحاجة ثقافية وفنية قبل أن تكون سياسية. فإذا جاء المُمتازون من كتَّاب البلاد الصغيرة — أُبادر فأنفي انتسابي إليهم! — وكتبوا بلغةٍ غير مُميزة تسلكهم في أي عداد شِئنا، فالخسارة خسارة الأدب العالمي مثلما هي خسارة الأدب المحلي» (المرجع السابق).

البحر عندي هو الموطن، هو بحري، والطفولة، والنشأة، والذكريات المُلتصقة بلحم جسدي.

أتذكر قول فورستر — تاني! — «إن الطريقة المُثلى لرؤية الإسكندرية هي أن تتجول فيها في هدوء، وبلا هدف». أواصل السير — الآن — في شوارع بحري وميادينه وحواريه وأزقته. أتأمَّل البيوت والدكاكين والجوامع والزوايا والمقامات والأضرحة والمقاهي والأسواق والساحات. كل ما انطبع في ذاكرتي وأَلِفتُ رؤيته، تغيَّر. اختلط بما لم يكن موجودًا، أو اختفي.

أتمنَّي أن أظلَّ أكتب، وأكتب، بينما نظراتي تتَّجِه إلى البحر.

الموروث الشعبي في كتاباتي الروائية

نشأتُ في بيئةٍ تحض على عشق الموروث الشعبي. حي بحري شِبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية. إلى اليمين الميناء الشرقي، أو المينا الشرقية في تسمية السكندريين. وإلى اليسار الميناء الغربي، أو المينا الغربية، وفي المواجهة خليج الأنفوشي، ما بين انحناءة الطريق من نقطة الأنفوشي إلى سراي رأس التين.

هذه البيئة تتميز بخصوصية مؤكدة، فالبنية السكانية تتألَّف من العاملين في مهنة الصيد وما يتصل بها، ومن العاملين في الميناء وصغار الموظفين وأعداد من الحرفيين والمتردِّدين على الجوامع والزوايا والأضرحة، فضلًا عن الآلاف من طلبة المعهد الديني بالمسافرخانة.

وإذا كان لبيئة البحر وما يتَّصل بها، انعكاسها في العديد من أعمالي الإبداعية، فإن البيئة الروحية لها انعكاسها كذلك في تلك الأعمال.

ثمة جوامع أبو العباس وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وعبد الرحمن بن هرمز وعلي تمراز، وثمة أضرحة كظمان والسيدة رقية وكشك وعشرات غيرها من جوامع أولياء الله الصالحين ومساجدهم وزواياهم وأضرحتهم. وثمة الموالد وليالي الذكر والأهازيج والأسحار والتواشيح، وليالي رمضان وتياترو فوزي مُنيب وسرادق أحمد المسيري وتلاوة القرآن عقب صلاة التراويح في سراي رأس التين والتواشيح، واحتفالات الأعياد: سوق العيد وما يشتمل عليه من المراجيح وصندوق الدنيا والأراجوز والساحر والمرأة الكهربائية وألعاب النشان والقوة وركوب البنز والحنطور من ميدان المنشية إلى مدرسة إبراهيم الأول، وتلاقي الأذان من المآذن المُتقاربة، والبخور والمجاذيب والمساليب، والباحثين عن النُّصفة والبرء من العلل والمدد، بالإضافة إلى المعتقدات والعادات والتقاليد التي تُمثل — في مجموعها — موروثًا يحفل بالخصوصية والتميز.

حين أراجع أعمالي الإبداعية بدءًا من قصتي القصيرة الأولى (إلى الآن حوالي ٩٠ قصة قصيرة و١٨ رواية) فإن تأثير ذلك كله يَبين في العديد من المواقف والشخصيات، وفي تنامي الأحداث.

بل إن مُراجعتي لكتاباتي التي وظفت — أو استلهمت — الموروث الشعبي، أجد أنها وليدة العفوية ومحاولة التعبير عن الواقع. هذا هو ما أفرزتْه تجربة الحياة والمشاهدة والقراءة والتعرُّف إلى الخبرات. لم أتعمَّد الإفادة من الموروث الشعبي، بل هو الذي فرض مُعطياته في مجموع ما كتبت.

لقد وعيتُ على جلسات السمر، أو الثرثرة، في بيتنا، قوامها أفراد عائلة أُمي أو أبي، وأصدقاء أبي، يتحدَّثون عن وقائع يوقنون بحدوثها، عاشوها أو رواها آخرون، لقاءات في المقابر، وفي الطرق الخالية والخرائب، وربما على شاطئ البحر، بأرواح وأطياف وأشباح، وعفاريت تظهر في هيئة إنسية، وتتحوَّل بعد صحبة خطوات في الخلاء، وأولياء خاطبوا قاصديهم من داخل مقاماتهم، أو أضرحتهم.

بالطبع، فإن ما وعيتُ عليه، واستمر في حياتي إلى الآن، ليس استثناء، إنما هو يقين غالبية المصريين، بصرف النظر عن مستوياتهم الاجتماعية والمعرفية. إنهم يؤمنون بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم، ومخاطبة الموتى، والسحر، ومعرفة الغيب، والتنجيم، والفأل، والطيرة، ووجود الجن والعفاريت والأشباح والأطياف.

ظنِّي أن ذلك كله قد انعكس في العديد من أعمالي الروائية والقصصية، تعبيرًا عن الواقع، وليس مجرد تقديم العجائبية والغرائبية. هذه هي حياة الشعب المصري، يُخالط تديُّنه نزوع إلى الخرافة، والإيمان بقوى خيِّرة وشريرة، قد لا نراها، لكنها تعيش في صميم وجودنا.

الحكايات والحواديت ليست تزجية فراغ، ولا هي لمجرد التسلية، أو الرغبة في الإدهاش، لكنها تُعبر عن معانٍ حاضرة، وتحاول التعبير عن معانٍ غائبة. ما قد ينتسِب إلى الخيال يتلقَّاه الوجدان الشعبي باعتباره حقيقة، سواء من حيث الحكاية، أو الدلالة التي نحاول — في إطار من الفنية — تقديمها. إنه الخيال نفسه الذي أطال في عمر عنترة، فعاش مئات الأعوام، حتى تظهر الدعوة المُحمدية، فيدرأ عنها خطر الأعداء. وثمة الظاهر بيبرس الذي غفر له الوجدان الشعبي إقدامه على فعل الخيانة، فقتل قائده المُنتصر، وجد الناس في إنجازاته العسكرية والسياسية والاجتماعية ما يُنسيهم فعل الخيانة (كم يكرهها المصريون!) وجعلوا من بيبرس بطلًا قوميًّا. ومع أن عروس البحر تبدو

— في مدخل متحف الأحياء المائية — دميمة إطلاقًا، مجرد كتلة غير مُتناسقة من اللحم، فإن الوجدان الشعبي أقرب إلى تلقِّي حكايات الجسد الفارع، والشعر الذهبي المنسدل، والعينَين الزرقاوين، والأغنيات التي تجتذب راكبي البحر، تغوص بهم في عوالمها السحرية.

الغريب أن بعض نُقَّادنا يُنكر أن تكون لإبداعاتنا صِلة بالواقعية السحرية، رغم أن معظم مُبدعي الواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية أكدوا تأثرهم بحكايات ألف ليلة وليلة، حتى إن الأرجنتيني بورخيس كان يضع كتاب الليالي في الحقيبة التي تُرافقه في رحلاته.

وبالنسبة لي، فأنا أبدأ الكتابة الإبداعية، وأُتمها، في ما يشبه الكتابة الآلية، وإن كان من الصعب أن أنسب هذه الأعمال إلى السوريالية.

لعلَّ الواقعية الروحية، هي التسمية التي تصحُّ على إبداعاتنا التي تنطلِق من تمازُج الواقعي واللاواقعي، الحقيقي وما يجنح إلى الخرافة، ما نعيشه وأحلامنا. المُكاشفات والكرامات ومخاطبة الموتى، وغيرها مما قد لا يرتبط بالواقع، أو حتى يرفضه العقل، إنما هو عند الغالبية العظمى من المصريين جزء من حياتهم العادية. نجده في حواديت الجدات، وطقوس الموت، والإيمان بالأرواح، وبخوارق أولياء الله، وهو ما تناولته بخاصة في رباعية بحري وأهل البحر، وتناولته بعامة في الكثير من أعمالي الروائية والقصصية.

قد تعكس طقوس الموروث الشعبي ما يرفضه العقل، لكنها تتحرَّك على أرضية من المُعتقدات التي تبلغ — بدرجةٍ كبيرة — حدَّ اليقين. نحن نلجأ — على سبيل المثال — إلى أضرحة الأولياء ومقاماتهم، سعيًا لحل مشكلاتنا، ولطلب النصفة والمدد. بل إننا ننسب إلى كل ولي كرامات مُحددة، يختصُّ بها (لا أدري من أوجد ذلك التقسيم؟) فثمَّة من يُعيد الأولاد التائهين، ومن يبرئ المرضي، ومن يُعالج عُقم المرأة. وثمة الديوان الذي يُعقد ظُهر كل خميس لتدارس المشكلات التي توضع في نذور أولياء الله، ترأسه السيدة زينب، ويضمُّ إلى عضويته السيد البدوي، والرفاعي، والدسوقي، والشافعي (الجيلاني في روايات أخرى).

الوجدان الشعبي، أو الضمير الجمعي، هو الذي يهب الواقعية الروحية أبعادها. إنها موروث وتراث، ننشأ على فهمه وتفهُّمه وممارسته: السِّيَر والتراجم والحكايات وقصص التاريخ والحواديت. الواقعية السحرية فعل الفنان. أما الواقعية الروحية فهي فعل الجماعة. إنها لا تستنِد إلى الخيال، ولا تنطلِق منه، فهي المعنى الذي نؤمِن به، ونعيشه، ونُمارسه، باعتبار أن تلك هي حياتنا. الغرائبية — أو العجائبية — هي الإطار الذي

تتحرَّك الواقعية السحرية في إطاره، إنها مضاهاة الواقع، التوازي — أو لنقل التماهي — معه، لكن تظلُّ الواقعية السحرية تعبيرًا عن مخيلة الفنان، بعكس الواقعية الروحية التي تُقارب اليقين الدِّيني، والمُمارسات المجتمعية.

العالَم الآخر ليس تخمينًا ولا خيالًا، إنه حقيقة، يقين، نؤمن بوجوده، وبكل ما يحويه من تجليات. نحن نعيش اليقين الديني، والحياة الآخرة، شفاعات أولياء الله ومكاشفاتهم وبركاتهم، والصراط والحساب والعقاب والجنة والنار. نثِق أن أعزاءنا فارقونا بأجسادهم، لكن أرواحهم تظلُّ في حياتنا، إن لم يكن أثناء الصحو، ففي أثناء النوم.

وفي قصصي القصار، تتناثر لمحات من الموروث الشعبي، مُتمثلة في العديد من سلوكيات الحياة، والمفردات، والتعبيرات، وغيرها مما يعبِّر عن التميُّز الذي تتَّسِم به منطقة بحري في حدودها الجغرافية، المُحددة، والمحدودة: الزي الوطني، الطب الشعبي، ألعاب الأطفال وأغنياتهم، نداءات الباعة، الكناية، النكتة، المُعايرة، القَسَم، الطرفة، المثل، الحلم، وغيرها.

رباعية بحري، عمل روائي من أربعة أجزاء: أبو العباس، ياقوت العرش، البوصيري، علي تمراز. تعرض للحياة في بحري، منذ أواخر الحرب العالمية الثانية إلى مطالع ثورة يوليو ١٩٥٢م. لوحات منفصلة من حيث تكامُل اللحظة القصصية، ومُتصلة من حيث اتصال الأحداث، وتناغم المواقف، وتكرار الشخصيات.

أنسية التي طالَعَتْنا في بداية الجزء الأول من الرباعية، هي أنسية التي انتهت بها أحداث الجزء الرابع والأخير. وما بين البداية والنهاية نتعرَّف إلى دورة الحياة من ميلاد وطفولة وختان وخطبة وزواج وإنجاب وشيخوخة ووفاة، فضلًا عن الحياة في المعهد الديني بالمسافرخانة، وحلقة السمك، وحياة الفتوات، والعوالم، وما يتَّسِم به ذلك كله من اختلافٍ وتميز، بقدْر اختلاف البيئة وتميزها.

على سبيل المثال، فإن الحياة في البحر، وصلة البحر واليابسة، والمؤمنين بطهارة الماء، وقُدرة البحر على أعمال السحر، والحكايات والمعتقدات عن عرائس البحر والعوالم الغريبة وكنوز الأعماق، والخرافة، والأسطورة، والزي التقليدي، والمواويل، والأغنيات، والأمثال، والحكايات، وخاتم سليمان، والمِهَن المتصلة بمهنة الصيد كالصيد بالسنَّارة والطراحة والجرافة، وأسرار الغوص في أعماق البحر، وغزل الشباك، وصناعة البلانسات والفلايك والدناجل وغيرها، وركوب البحر، وبيع الجملة في حلقة السمك، وبائعي الشروات ... ذلك

كله يتوضح في الشخصيات التي كانت الحياة في البحر مورد الرزق الأهم — أو الوحيد — لها.

أما الروحية التي تُمثل بعدًا مُهمًّا في حي بحري، فهي تبين عن ملامحها في كثرة الجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة، ورفع أولياء الله عن الغلابة والمُنكسرين ما يحيق بهم من ظلم، وكرامات الأولياء من اطلاع على الكائنات، وطي الأرض، والسير على الماء، والطيران في الهواء، وإتيان بالثمار في غير أوانها، وتحويل ماء البحر إلى ماءٍ عذب، وتواصُل الكرامات حتى بعد أن يرحل الولي، والمكاشفة التي تحقَّقت على يدِ أبي الدرداء حين أنقذ الإسكندرية من طوربيد ألماني في غارات الحرب العالمية الثانية، والخضر الذي يظهر للمراكب حين يُهددها خطر النوات، فيُنقذها، وتجليَّات الصوفية في الإشارات والأسرار والرموز، وارتقاء الدرجات من المُريد إلى المُقدِّم فالنقيب فالخليفة خاتمة الدرجات الروحية، ودروس المغرب، وتصوُّرات مشاهد الجنة والنار، والخوف من الجن والمردة والعفاريت، وإيقاد الشموع على أضرحة الأولياء، وتقديم النذور، وكنس النساء للأرض بالملاءات، أو التمرُّغ عليها، يطلبنَ الخلفة والمصلحة والشفاعة والمَدَد، والوصفات الشعبية، وأعمال السحر، والتربيط، والأعمال السُّفلية، والوسائل التي بلا حصرٍ لعلاج الإجهاض، أي سقوط الجنين قبل أن يكتمِل نموه: وَصفات غريبة، وقاسية، وتجارب لا بد أن تخوضها المرأة الحامل لتحتفظ بالجنين، ودلالات ظواهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب ورياح وعواصف ونوات ومناطق وفرة — وجدب — السمك. الشمس تجاوز صفتها الظاهرة، فتتحوَّل إلى صديقٍ للجدِّ السخاوي، يعرض عليها مشكلاته، ويأخذ منها ويُعطي، وحين يحسُّ بدنو الأجل فإنه يتطلَّع إليها ويُخاطبها بما لم يتبيَّنه أحد.

وتُطالعنا رواية «أهل البحر» بالكثير من الأخبار والوقائع والحكايات الأسطورية والخرافية، والكثير من الموروث الشعبي. وكما أشرتُ في مقدمة الرواية، فإن بحري يحتضن العشرات من الأضرحة والمقامات والمساجد والزوايا، أسماؤها بأسماء أولياء الله الصالحين وأقطاب الصوفية ... مارس أبناؤه الحياة بصُوَرها الرتيبة والمُغايرة ... عرفوا الواقع والخيال والسحر، وبركات أولياء الله ومكاشفاتهم.

وفي روايتي القصيرة الصهبة تناولٌ لطقسٍ شعبي، تغلِب عليه الأسطورة. المرأة المُنقبة التي تخضع لمزادٍ وهمي، من يرسو عليه، يرفع عن وجهها النقاب، فيتجدَّد أملُها في الإنجاب. ويختلط الواقع بالحلم في أحداث الرواية، فتغيب الملامح. لا يدري إن زارته في الصحو أو في المنام، ولا يُبين ناس الصهبة عن هويتهم حتى يهمس صوت الأم وهي ترى ابنها ينزل درجات البيت إلى حيث يتجمَّعون: هل انجذب؟!

أما روايتي «زهرة الصباح» فهي محاولة لتوظيف حكايات ألف ليلة وليلة في عملٍ أدبي حديث. زهرة الصباح هي الفتاة التي تلي شهرزاد في قائمة الفتيات اللائي ينتظرهن سيف «مسرور». كانت تحيا في ظلِّ الخوف من أن يملَّ شهريار، أو تخفق شهرزاد في الحكي، فيحلَّ دورها. وحاول أبوها — وهو من المُقربين إلى شهريار — أن يفيد من تلك الفترة في رواية الكثير من الحكايات والطرائف والنوادر والأخبار والعِبر والسِّيَر والمواويل، تُنصِت إليها زهرة الصباح، وتحفظها. تُحيلها مخزونًا حكائيًّا ليُعينها على مواصلة الحكي.

كانت قدرة شهرزاد على استدعاء الحكايات، أو اختراعها، وروايتها، هي وسيلتها للإبقاء على حياتها، فهي إما أن تصِل الحكايات، كل حكاية بأخرى، أو تموت. فإذا نفد ما بحوزتها من الحكايات، أو فقدت القُدرة على الإدهاش، وفقد شهريار بالتالي فعل المتابعة والدهشة، واصل السيَّاف مسرور حلقات سلسلة الإعدام ... ذلك كله كان يعلمه عبد النبي المتبولي، فشغل مُعظم وقته بتحويل ذاكرة زهرة الصباح إلى خزانة تستوعب كل ما استطاع حفظه فيها من الحكايات والحواديت والعظات والعبر.

تضمن السرد الروائي الكثير من جوانب الموروث الإبداعي العربي. ضُفِّر في نسيج العمل الروائي، لا لانتساب الرواية إلى عالَم ألف ليلة وليلة باعتبارها تراثًا إبداعيًّا فحسب، وإنما لأن أحداث الرواية تدور في أجواء شعبية، ففيما عدا الشخصيات الرئيسة القليلة، فإن غالبية الشخصيات من الطبقات الأدنى والمُهمشين.

ونحن نستطيع التعرُّف إلى البدايات الأولى للموروث الشعبي في حياتنا الآنية، من خلال توالي الإجابة عن الأسئلة الاثنين والأربعين التي أعادت تقديم سيرة حياة المواطن «زاو مخو» في صورتها الصحيحة، في روايتي «اعترافات سيد القرية». الإيمان بالخلود، تقديم النذور والقرابين، الأدعية والرقى والتعاويذ، العلاقات الأسرية، السيرة، الأسطورة، الخرافة، الحكاية الشعبية، الخطابة، الطرفة، الطب التقليدي، التيقن من القدرات العلاجية لشجرة الجميز، الوصفات الشعبية التي تُشعل الشبَق في جسد الرجل، وتَسري بالخصوبة في جسد المرأة، المُوسيقى الوطنية ... إلخ.

في منطقةٍ ما، يتداخل الموروث والتراث، المُعتقدات والعادات والتقاليد والقراءات والخِبرات الشخصية وخِبرات الآخرين، يتداخل ذلك كله، فيصنع ما يصعُب تصنيفه بصورةٍ مُحددة.

وقد مثَّل صندوق الدنيا هذا التداخُل في مخيلتي، ولعلَّه كان دافعًا — على نحوٍ ما — لتوزُّع محاولاتي ما بين توظيف الموروث، كما في «الصهبة»، وتوظيف التراث كما في «زهرة الصباح»، فضلًا عن توظيف التاريخ كما في «قلعة الجبل» و«اعترافات سيد القرية» و«الجودرية» و«من أوراق أبي الطيب المتنبي» و«ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» وغيرها.

كنت أجلس إلى جوار شقيقتي على الدكة الخشبية الصغيرة، نتلاصق بما يأذن لأعيُننا كي تنظر — من وراء الستارة المُهترئة — إلى توالي الصور الثابتة، يُرافقها صوت الرجل، يذكر الأسماء: السفيرة عزيزة، أبو زيد الهلالي، الزناتي خليفة، ست الحسن، الشاطر حسن ... إلخ.

لم تغادر الصور ذاكرتي، وكانت قصتي «سوق العيد» استدعاءً لما كنت أشاهده في صندوق الدنيا. تحركت الصور الثابتة، وصنعت حياة لها دلالاتها، وأفدت كذلك من الصندوق العجيب في العديد من المحاولات الروائية والقصصية.

روايتي «بوح الأسرار» تحاول — من خلال معالجة فنية — أن تُجيب عن السؤال: لماذا اختار الوجدان الشعبي هذه الشخصية أو تلك، ليُضفي عليها من هالات القداسة والعظمة ما يجعل منها أحد أبطاله الشعبيين؟

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال — بصورة مطولة، تقترِب من العلمية ما أمكن — في كتاب لي صدر مؤخرًا بعنوان «البطل في الوجدان الشعبي المصري» ناقشتُ فيه جوانب البطولة في عددٍ من الشخصيات التي وضعها الوجدان الشعبي في ذلك الإطار: لماذا اختار عنترة من بين مئات الشعراء في الجاهلية؟ ولماذا اختار الظاهر بيبرس من بين حُكام المماليك؟ ولماذا اختار السيد البدوي من بين الكثير من أولياء الصوفية الذين نُسبت إليهم مساجد وأضرحة؟ ولماذا اختار على الزيبق وابن عروس وياسين ومتولي وأدهم الشرقاوي وغيرهم؟

التقيتُ بالمجرم محمد أبو عبده، أو ابن بمبة في قرية السمارة الواقعة على حدود الشرقية والدقهلية. بدا في أحاديث الجميع شخصية أسطورية. كان أبناء القرية يتحدَّثون عنه بتوقير وحب، في حين حذَّرني مأمور مركز السنبلاوين وعمدة القرية من محاولة التعرُّف إلى الرجل، وأظهروا خشيتَهم من أن يرفض لقائي، أو لا يُحسن استقبالي. لكن الرجل استقبلني بحميمية مصرية، ودعاني إلى تناوُل الغداء. وتأمَّلت توسُّطه لحلِّ

مشكلات أبناء القرية، ومساعدته لهم في كل ما يطرأ على حياتهم. حتى الحريق الذي أشعلَتْه شرارة حطب ظُهر يوم الصيف الذي تصادف أني زُرته فيه، أذهلني تَصدِّيه لإطفائه رغم أعوام عُمره المتقدمة.

بدا لي الرجل وأنا أغادر القرية، تجسيدًا للبطل في الوجدان الشعبي — في بالي الكثير مما استمعتُ إليه من الحكايات في أعوام النشأة: كيف يكتسب صفاته، فيُصبح — في توالي الروايات والحكايات والمواويل والسير — ذلك البطل الذي تُنسَب إليه الأفعال الخارقة والمعجزات (روى الصديق رفعت السعيد في ذكرياته — فيما بعد — عن تعرُّفه إلى ابن بمبة في رحلة الاعتقال والسجن. بدا مُعجبًا بالرجل، وأشار إلى أنه (الرجل) قتل تسعة أشخاص، لكن الرجل أكد لي أنه لم يُجاوز التخويف، ولم يقتُل أحدًا). تصورت ابن بمبة ذلك البطل في عملية التحول داخل الوجدان الشعبي. ولجأتُ إلى تقنية تعدُّد الأصوات التي اختلفت رواياتها في تصاعد درامي، تتحول فيه شخصية فرج عبده زهران، أو ابن شفيقة، من شابٍّ يحترف الإجرام إلى وليٍّ له بركاته وكراماته ومُكاشفاته، وضريحه الذي يقصده الناس لالتماس المدد، والمولد السنوي، وحفلات الذكر ... ما بواعث التحول؟ وكيف؟ وما نتائجه؟

تباينَت الروايات في طفولة ابن شفيقة، ونشأته، والظروف التي أفضت إلى تحوُّله إلى بطلٍ شعبي. بالتحديد إلى ولي صوفي. لكن الروايات لم تختلف في أنَّ فرج خليل قد أصبح له ضريح ومقام وخليفة وتلامذة ومُريدون، يؤمنون بكراماته، ويذكرون الله تعالى.

وكما يقول الصديق الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي في دراسته لـ «بوح الأسرار» «إنه إذا كانت أسطورة فرج قد مرت بمراحل ثلاث: مرحلة المظلوم، ومرحلة الدافع للظلم الواقع على الناس، إلى مرحلة المُقدَّس، فإنه — في المراحل الثلاث — كان مُطاردًا. مطاردًا من عمدة ظالم، ثم من قوة الإدارة المُتحكمة في الجماعة، ثم محاولة هذه القوة مُطاردة أسطورته. وحتي بعد موته، فإن استخدام تعدُّد الأصوات جعل الأصوات المُطاردة خافتة، لترتفِع الأصوات الواقفة مع فرج ساعة تكوُّن أسطورته. إن الأسطورة هنا تُمثل الواقع الاجتماعي للجماعة».

أشير إلى العلاقة بين الموروث الصوفي والموروث الشعبي، المُعتقدات والسلوكيات وأساليب العبادة. فالأتباع والمُريدون ينسبون إلى من آمنوا بولايتهم، كرامات ومكاشفات وخوارق، مُعظمها ينطلق من الخيال وليس من الواقع.

إنها حكايات مُتخيَّلة!

بانت سعاد

وعيتُ على البحر في مواجهة بيتنا، وفي إحاطته بالبيت — والحي كله — من ثلاثِ جهات. لا أذكر متي استمعتُ إلى الحكايات الأولى، لكنها كانت في سِنٍّ باكرة للغاية، أهمُّها ما كان يُروَى عن عروس — جنية — البحر، واعتدتُ طيران النورس على امتداد الساحل، والبلانسات، والفلايك، وعمليات الصيد بالسنَّارة والطراحة والجرافة، وعسكري السواحل، وإيقاع جياد الملك في جولتها الصباحية، والمظاهرات ما بين سراي رأس التين وميدان المنشية، وأهازيج السحر من مِئذنة أبو العباس، والموالد، ومواكب الزفاف، وشوارع السيالة المُتشابكة، الضيقة، والحديقة الصغيرة أمام مستشفى الملكة نازلي، ومرسى القوارب بالميناء الشرقية، والرائحة التي لا يُخطئها الأنف في حلقة السمك، وزحام شارع الميدان، وخُطَب الشيخ عبد الحفيظ في صلاة الجمعة، ومواكب الصوفية، والجلوات، وسوق العيد.

كان ترامي صخَب الجلوات يَجذبني إليها، نقف — وإخوتي — وراء الشرفات باستدارة الشقة، نتطلَّع إلى الجلوة القادمة من شارع الأباصيري حتى ميدان الخمس فوانيس، ندور معها في شارع إسماعيل صبري، تُلاحقها نظراتنا قبل أن تَميل في شارع الميدان.

حين بدأت ملامح الأمكنة في التغيُّر، حاولتُ أن أحتفظ في ذاكرتي بكل ما أخشى أن يلحقه التلاشي. كنتُ أخشى أن تُبدد الأيام ما ألفت رؤيته، والحياة فيه، من مظاهر الحياة. ثمة ما لا تستطيع أن ترفضه، وإن كنتَ تشعر أمامه بالفقد، العمران الذي يزحف على البنايات القديمة والأزقة والساحات الخالية، وعلى الذاكرة الإنسانية أيضًا.

أشعر — أحيانًا — في رحلاتي المُتقاربة إلى بحري، أنه يبتعِد عن معنى الحي الذي ولدتُ فيه، وأمضيتُ أعوام الصبا والشباب الباكر. العالم الذي تركته كما أتذكَّره، لكنه ليس هو على وجه التحديد، المرئيات لم تعُد هي نفسها. حدث ما يصعُب أن أُدركه،

لكنَّني أشعر به. مع ذلك، فإن التغيُّر يَبين في ملامح كثيرة، في البنايات والشوارع والميادين والحياة في المينا الشرقية وشاطئ الأنفوشي. حتى الناس ليسوا هم الذين اعتدت لقاءاتهم. ثمة الكثير من ثوابت الملامح، ليس في بحري وحدَه، وإنما في الإسكندرية جميعًا، لحِقها الشحوب، أو التلاشي، فلا تربطني بالملامح الآنية أية ذكريات.

في قصتي القصيرة «حلاوة الوقت» يعود الراوي إلى بحري، إلى الأماكن التي شهدت طفولته، ونشأته، يَروعُه أنَّ ما كان يعرفه واسعًا، أو ضخمًا، قد ضاق أو صغر؛ الشوارع، مداخل البيوت، الحجرات، أضاف إلى التبدُّل ما تهدَّم من بنايات قديمة، وطلوع بنايات أخرى، جديدة، لها قسماتها المُغايرة. ثمَّة مواضع كان لي فيها ذكريات شخصية، زالت كأنها لم تكن.

حدثتُك في حكاياتٍ عن جزيرة فاروس عن فاطمة فتاة البيت المُقابل، هدمته وزارة الأوقاف التي يتبعها، شيَّدَت مكانه بنايةً أخرى حديثة، رحلت فاطمة إلى حيث لا أدري، وحل في البناية سكان آخرون (إذا كانت السنُّ قد تقدمت بي، فلا بد أنها فعلت الأمر نفسه — الآن — في الجميلة فاطمة. هل ما تزال تحمل بقية جمال، أم أن الله تداركها برحمته؟!)

هذا هو بحري، لكن ما عشتُه يختلف عما أراه الآن، أشعر به، وإن لم أستطع تحديده تمامًا.

مع ذلك، فقد تغيَّر الكثير: الشوارع والميادين والساحات والبنايات وسلوكيات الحياة اليومية. بدأت البيوت القديمة، الصغيرة، المتساندة، في الذوبان، في التلاشي، بيوت قديمة توشِك على التهاوي، وبيوت مُتهدمة، أو تحوَّلت إلى خرائب، تداخلت بنايات الأسمنت المُسلح في البنايات ذات الأسقُف الخشبية، شُيدت عمارات عالية، ستة طوابق وأكثر، وإن ظلَّت غالبية الشوارع على ضيقها، فعانت الزحام بما أملتْه الزيادة السكانية، وتنامى أعداد الوافِدين إلى الحيِّ بالتالي. لم تعُد الصورة على حالها في مساحات كثيرة، وفي الشوارع الرئيسة والميادين بخاصة، تعرَّض كل شيء للهدم وإعادة البناء والتحوير والتبدُّل، وإن كنتُ لا أبرئ ذاكرتي. تتوالى الصور، تتعاقب، واضحة وشاحبة، تتَّسِع آفاقها وتضيق، تبين الملامح والتفاصيل، وتختفي تمامًا.

أذكر — على سبيل المثال — ذلك الرجل الذي كان يجول الشوارع وهو ينادي: أبيَّض النحاس! أوعية الألمنيوم هي البديل الأرخص للأوعية المصنوعة من النحاس. وغاب الحاوي وصندوق الدنيا والأراجوز وسباق البنز وسباق القوارب وصيد السنارة

والطراحة والجرافة، والأبوحمدات، والفتوات، ولابسات الملاءة اللَّف والقبقاب، وعسكري السواحل، وعفريت الليل، والغازية حاملة الغلق، ونافخ النار، ومن يبتلعون النار في الجلوة، ويصلون أسياخ الحديد في وجناتهم، ويقرقشون قِطَع الزجاج، ويتلهَّون بالحيات والثعابين، والقرداتي الذي كان يدفع حيوانه الصغير إلى حركات وشقلباظات، كأن يُقلِّد نوم الأعزب، أو يصنع العجين كما الفلاحة، وربما حرَّضه على السرقة في زحمة البلاهة المُتفرجة. ومضت سنوات بعيدة على رؤيتي للغجرية، تخترق الشوارع، وترفع رأسها إلى النوافذ والشرفات، وصوتها يعلو بالقول: أدق وأطاهر! لم أعد ألتقي كذلك بالرجل المفتول العضلات، يدعو المُلتفِّين حوله لتقييده بحبل، ويفك القيد لقاء وضع قروشٍ في طبق تحت قدمَيه. وكان أمْيز ما في أوقات الربيع سباق البنز من رأس التين إلى السلسلة. ألغته ظروف الزحام، وربما الظروف الأمنية، وهي الظروف نفسها التي ألغت العربات الصغيرة، على نواصي الطرق الجانبية، تُتيح لمن يحتسي الشاي أن يرفع — بالثمن نفسه — ثقل الحديد، أو يلعب تنس الطاولة. ظنِّي أن تلك الأشياء لو ظلَّت قائمة، فإنها كانت ستزيد فُرَص تقديم المتفوقِين في الألعاب الأولمبية، وغيرها.

دنيا الفتوات في أعمالي، استعادة لذكريات أبي عن فتوات الإسكندرية. شكلوا مَعلمًا مُهمًّا في حياة المدينة، أزعج الناس بما كانوا يفرضون من إتاوات وعمليات ابتزاز ومعارك شِبه يومية بين فتوة حيٍّ ما وفتوة حيٍّ آخر، وتسيل الدماء، وتُدمَّر الممتلكات، ويدفع الثمن عامَّةُ تجار المدينة وناسها العاديون، ويحيا الجميع في قلقٍ دائم.

أثار الفتوات الذُّعر في بحري بمشاجراتهم التي لم تكن تنتهي بالسيوف والأسلحة البيضاء، وتتحطَّم بالتالي محال المنطقة والسيارات الواقفة على جوانب الطرق، فضلًا عن الخطر الذي يتهدَّد السكان والمارَّة.

لكنَّ أفعال فتوات الإسكندرية امتدَّت — في أحيانٍ كثيرة — إلى سلطة الاحتلال الإنجليزي، يترصدون لجنوده في شوارع المدينة، ويسرقون مُعسكراته. أذكر كالطيف — من طفولتي الباكرة — مجموعةً من الفتوات قفز أحدهم في سيارة نقل لجنود الإنجليز تحمِل كمياتٍ من الملابس، وقذف بها إلى زملائه الذين انطلقوا وراء السيارة، حتى نفد ما كان بها من ثياب.

كانت شرفة بيتنا ونوافذه الخلفية تطلُّ على ميدان الخمس فوانيس وجامع سيدي علي تمراز. شهدت في الميدان آخِر معارك فتوات بحري، تطايرت فيها كراسي، وتناطحت

شوم ونبابيت، وسالت دماء، وسقط صرعى وجرحى، وشال البوليس الباقين إلى حيث غابوا عن شوارع بحري. وحين بدأتُ في كتابة «رباعية بحري» حاولتُ أن أُقدم عالم الفتوات، تعرفت إليه من خلال الذكريات القديمة لأبي، والقريبة لأبناء بحري الذين عاشوا فترة ما بين الحربَين. وكان فتوات نجيب محفوظ دافعًا لأن أكتب عن فتوات الإسكندرية، رغم اختلاف المكان والزمان، وطبيعة الشخصيات، ومِهَنهم أيضًا!

كانت «الفتونة» هي العمل الوحيد الذي مارسه فتوات نجيب محفوظ. عاشوا على البلطجة، وفرض الإتاوات، وافتعال المشاجرات، وخوضها لحساب الآخرين، في حين أنه كان لغالبية فتوات الإسكندرية مِهَنهم التي تكسَّبوا منها، أما الفتونة فلم تكن سوى هواية، وسيلة لإثبات الشهامة والنخوة والمروءة والجدعنة. وكان عمل فتوات نجيب محفوظ في غيبةٍ من السلطة، شغلهم الهرَب والتخفِّي واللواذ بالأماكن النائية. أما فتوات الإسكندرية فقد كان تحدي سلطة الاحتلال وحكومات الأقلية، حرصهم الأول. وكانت معاركهم في الساحات والميادين وعلى القهاوي، وأعلنوا الاحتقار لمن جعل الفتونة مِهنته. وكان أبلغ ما يعتزُّ به حميدو فارس — مثلًا — ورواه الذين فوجئوا بالمشهد، أنه كبس طربوش المحافظ على رأسه، لسبب تصوُّر أنه يمسُّ كرامته. وأفدتُ من الحادثة في روايتِي «الأسوار»، بيومي الدكر الذي كبس طربوش مدير المديرية على رأسه. وروى لي أبي كذلك، الكثير عن فتوات الإسكندرية. غالبيتهم — أو أكثرهم شهرة — من بحري، حيث قضيت طفولتي وصباي: حميدو فارس وأبو خطوة والسكران، وغيرهم ممَّن تغيرت بغيابهم — في أعقاب الحرب العالمية الثانية — صورة الحياة في الإسكندرية، وبالذات في أحيائها الوطنية.

كان الخواجة ميخاليدس — البقال بشارع الميدان — يعيش الحنين نفسه الذي يعيشه كل الأجانب المقيمين في الإسكندرية، كل يحن إلى موطنه الذي ولد — أو نشأ — فيه، أو نشأ فيه أبواه قبل أن يُهاجرا إلى مصر، أو أن أصوله تنتسب إلى ذلك الموطن/الوطن. الوطني من أبناء المدينة يحن إليها إن ابتعد عنها، سواء ركب البحر، أم أخذته الهجرة إلى بلدٍ بعيد. أما الأجنبي فإنه يُعاني حنينًا في الاتجاه المقابل، الحنين إلى موضعٍ ما، بلدٍ ما، في الناحية الأخرى من البحر.

يُحدثني عن أيام تردُّده على شارع اللبان. يتردَّد على المقاهي والبارات، يشرب الخمر، يبحث عن النساء. يكتفي بأطراف كوم بكير — حي البغاء آنذاك — لا يُحاول اختراق شوارعه وحواريه وأزقته. تُضايقه العبارات الداعية والمُحرضة، من النسوة الواقفات على الأبواب، وابتزازات البلطجية، وتمازُج روائح النوم والمخدرات والقيء والعرق والعطن.

يُحدثني عن الصيد، السمَّان والبط وغيرها، ما يذكره يتباين مع مظهره. تأتي أسراب الطيور من الشمال فرارًا من البرد والصقيع، تتَّجه إلى الجنوب، إلى أفريقيا حتى أوغندا. تظل هناك إلى يونيو. يبدأ ما تبقى منها رحلة العودة. السمَّان طائر يكره الضوء والحرارة، عصبي المزاج، يُحب الحرية، غبي التصرُّف، فمن السهل صيده.

تعدُّد الميكروفونات في مساجد الحي، لم يعُد يقصر الأذان على أبو العباس، تتلاقي الأصوات في المآذن المتقاربة، تتشابك وتختلط، تسبق العبارات وتتأخَّر، يصعب تَبيُّن إلا مفردات: الله ومحمد والصلاة والفلاح. أستكمل العبارات بما أحفظه جيدًا، الأذان في ذهني ووجداني منذ بداية الوعي.

كانت الأراضي الخلاء في بحري، تتحول — تلقائيًّا — إلى ملاعب لكرة القدم. الخلاء المجاور لحلقة السمك، المَوضع الذي بُنيت فوقه — فيما بعد — سينما التتويج، الأرض المواجهة لسراي رأس التين، ومواضع أخرى كنتُ أحرص على التنقُّل بينها. يتقابل المرميان، وتُصَفُّ الكراسي على جانبي «الملعب». يُشارك في المباريات لاعبون من أندية الإسكندرية: الاتحاد، الأولمبي، الترام، بالإضافة إلى لاعبين من أندية القاهرة يُحاولون الإنفاق على إجازة الصيف مما تُدرُّه المباريات. كل كرسي بقرشين، يُمثل مجموعها مبلغًا لا بأس به في وقتٍ يختلف تمامًا عن وقتنا الحالي. أُذكِّرك بما رواه عبد الكريم صقر عن قطعة الجاتوه التي كان يظفر بها من يُجيد الأداء!

أما المستوقد في شارع سوق السمك القديم، فقد أزيل من موضعه. حلَّت — بدلًا منه — محطة للبنزين. أذكر نهايات أيامه. كان أبي يحرص على شراء الفول من البائع الذي يقف أسفل بيتنا، يضع قُدوره في المُستوقد لتنضج على رماده. طعم الفول ألذ وأشهى من الفول الذي ينضج بعيدًا عن المستوقد. وثمة الترام الصغير ذو العربة الواحدة في السكة الجديدة، والتكية أول شارع إسماعيل صبري، والطرق المرصوفة بالبازلت.

ونحن صغار، كنا نترك بيوتنا، في أيدينا الفوانيس الملونة. ليست فوانيس هذه الأيام البلاستيكية بلمبة البطارية الصغيرة، وإنما فوانيس من الصفيح، تتراقَص فيها شمعة بحقٍّ وحقيق، يرافق تراقُصها غناؤنا لِما كنا نستمع إليه من أغنيات رمضان، مثل وحوي يا وحوي للمطرب الراحل أحمد عبد القادر، أو رمضان جانا لمحمد عبد المطلب، وغيرها من أغنيات شهر الصوم. فإذا صادَفَنا دكان، تعالت أصواتنا بالقول: الدكان ده كله عمار ... وصاحبه ربنا يُغْنِيه. يَهبُنا صاحب الدكان مليمًا أو مليمَين — مبلغ لا بأس به بعملة

ذلك الزمان! — فنُكرِّر القول: الدكان ده كله عمار ... وصاحبه ربنا يغنيه. قد يطردنا صاحب الدكان، أو يلعن سنسفيل آبائنا، أو يَقذفنا بما في يده. نهتف ونحن نجري: الدكان ده كله خراب ... وصاحبه ربنا يعميه.

نزهق من حمل الفوانيس. نُكومها في أي موضع، ثم تبدأ جولتنا في شوارع بحري وحواريه، نتعرف إلى مظاهر الاحتفال برمضان.

بحري — كما تعلم — هو أصل الإسكندرية. الْتقاء قرية راقودة بجزيرة فاروس. الحي — حتى الآن — هو التعبير عن «البلد». يقول ابن الرمل أو محرم بك أو سيدي بشر: أنا نازل البلد. المعنى أنه في طريقه إلى بحري. لبحري خصائصه التي لا تجدها في بقية أحياء الإسكندرية. الْتقاء اليابسة والبحر من كل الجوانب. شبه جزيرة في شبه جزيرة الإسكندرية، مساحتها كيلو متر مربع. غالبية سكان الحي من العامِلين في مِهَن تتَّصل بالبحر: صيادين وباعة سمك وغازلي شباك وبحارة وعمَّال ميناء وصغار موظفين. تتداخل البنية الديموغرافية مع الطبقة الوسطى من ميدان أبي العباس إلى ميدان المنشبة، حيث ينتهي حي بحري، أو ما يُسمَّى — إداريًّا — حي الجمرك.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الروحانية سمة لافتة في بحري. ثمة المُرسي أبو العباس، أو سلطان الإسكندرية كما يُلقبه السكندريون. من حوله جوامع أولياء الله: البوصيري وياقوت العرش ونصر الدين وعبد الرحمن وعلي تمراز. وتتناثر — في شوارع الحي وحواريه وأزقته — مقامات وأضرحة لأولياء آخرين، فتتشكَّل صورة يصعب أن نجدها في أي موضعٍ آخر، داخل الإسكندرية أو خارجها. يضيف إلى اكتمال الصورة ما يشغي به الحي — على امتداد العام — من موالد وحلقات ذِكر وخيام صوفية وأكشاك ختان، والْتقاء الأذان من المآذن المتقاربة في مواعيد الصلاة الخمس (كان سلامة حجازي رافعًا للأذان في البوصيري وأبو العباس قبل أن يتَّجِه إلى الغناء!) وأهازيج السحر، والتواشيح، وتذكير الدراويش للمؤمنين بقُرب صلاة الفجر.

في خان خليلي نجيب محفوظ غنَّى الأطفال في استقبال رمضان: صيام صيام ... كما أمر قاضي الإسلام.

لأن قاضي الإسلام كان يُقيم في القاهرة، فلا أذكر أن أطفال الإسكندرية — زمان — أنشدوا تلك الأغنية. قدموا أغنيات من التراث الصوفي — وللإسكندرية بفضل أقطابها الصوفيين نصيب وافر — وردَّدوا — فيما بعد — أغنيات الإذاعة.

قبل أن يبدأ التليفزيون تقديم فوازيره وبرامجه المُسلية ومسلسلاته، كانت سهرات رمضان تبدأ — بالنسبة للصغار — بعد الإفطار مباشرة، وبالنسبة للكبار بعد صلاة

التراويح. ميدان المساجد منطقة استقطاب لكل أبناء الإسكندرية. يتنقلون في سوق العيد (يبدأ قبل رمضان، وينتهي بعد العيد): المراجيح وخيال الظل وصندوق الدنيا والمرأة الكهربائية والساحر والثلاث ورقات وألعاب القوة والنشان، أو يجلسون في خيام الصوفية، أو في السرادقات التي ينشد فيها الراوي الشعبي سيرة عنترة والهلالية. يظلُّ ليل بحري مُستيقظًا إلى ما بعد صلاة الفجر. حتى الأُسَر التي تُفضل البقاء في البيوت تُسلِّي سهرها بتناول المكسرات وقزقزة اللب وأبو فروة.

أذكر أن الطيبة اجتذبتني في ملامح المسحَّراتي. كنتُ أستمع إلى دقاته على الطبلة، ودعواته، ومناداته على أبناء الحي بالاسم. قلتُ له اسمي، وظللتُ متيقظًا إلى ما قبل فجر اليوم التالي، أنتظر مناداته اسمي. نطق الاسم بالفعل، وتبينتُ — حزينًا — أن غالبية أبناء الحي يتقاسمون اسمي: محمد.

أُصارحك أن الصورة لم يطرأ عليها تغيُّر ملموس ببدء الإرسال التليفزيوني. ظلَّت سهرات رمضان — بأبعادها الروحية والترفيهية — على عافيتها وتألُّقها. ما بدَّل الصورة — إلى حدٍّ كبير — ذلك البناء الخرساني الضخم الذي أُقيم في قلب ميدان أبي العباس، نتيجة صفقة — غابت حقيقتها — بين محافظ الإسكندرية السابق وعددٍ من رجال الأعمال. تحول الميدان إلى مؤسَّسات تجارية واقتصادية ومطاعم ودكاكين للبازار وشرائط الفيديو والكاسيت. أصبح سوق العيد — المظهر الأهم لسهرات رمضان — مجرد مواضع متناثرة فيما تبقى من الميدان، وتقلَّصت السرادقات والخيام، وغابت الجلوات التي كانت تنطلِق من باب جامع أبو العباس إلى أحياء الإسكندرية الأخرى.

رمضان زمان ذكريات جميلة في وجدان جيل الآباء، وعلى جيل أطفالنا الحالي أن يقنع ببرامج الإذاعة والتليفزيون، وبفوانيس البلاستيك، يحملونها وهم يُردِّدون الأغنية المتوارثة من زمن بعيد: حالو يا حالو ... رمضان كريم يا حالو ... فك الكيس وادِّينا بقشيش ... لنروح ما نجيش ... يا حالو.

يرتبط شهر رمضان في ذاكرتي بقراءتي الأولى لكتاب طه حسين «الأيام».

مع أني لا أذكر متي بدأت الاختيار، والقراءة، في مكتبة أبي — وكانت مُفعمة بالكثير من كتب اللغات والاقتصاد، وبالأقل من كتب التراث والأدب المعاصر — فإني أذكر قراءتي لكتاب «الأيام» جيدًا. أذكر ظروف قراءته وتأثيراته في نفسي. كنتُ أقرأ كلَّ ما تُصادفه يداي. أذكر أقلَّه، وأنسى معظمه. وحين قرأت «الأيام» لم يعلَق في ذاكرتي إلا السياج الذي تَصوَّر الصبي أنه نهاية العالم. لم تُتِح له العاهة التي كان يُعانيها أن يجيد التعرُّف إلى

ما حوله. غابت تفصيلات المكان والزمان، فلم أعرف — وقتها — أن الأحداث جرَت في الصعيد، وأن زمنها هو أواخر القرن التاسع عشر. ولم أرسم ملامح مُحددة للصبي، وإن بدا — في مخيلتي — على الهيئة التي رسمَها الفنان الكبير بيكار تعبيرًا عن الأحداث.

في القراءة التالية، أشفقتُ على الصبي حين أخفق في أكل العدس، فحاول أن يقتل نفسه بالساطور. أغناني بيكار عن تخيُّل ما حدث برسمه للمشهد الدامي، أو الذي أوشك أن يكون داميًا، ولم تُغادر الصورة ذهني — منذ تلك الأيام البعيدة — حتى الآن. بل إنه كلما عراني الارتباك لسببٍ ما فرضَتْ معاناة صبي الأيام نفسها على ذاكرتي!

أما القراءة الثالثة، فقد كانت هي الدافع لأن أكتب أولى محاولاتي. كتيب صغير مطبوع سميتُه «الملاك». كتبتُه قبل أن أجاوز مرحلة الطفولة. تأثرتُ للغاية بالكلمات التي تَوجَّهَ بها الراوي إلى طفلته الصغيرة، يُحدِّثها عن فضل أُمِّها عليه، وعلى أُسرته الصغيرة. أعدتُ قراءة الكلمات حتى حفظتُها تمامًا، وأقدمتُ على محاولة المحاكاة في أول ما صدَر لي من ورقٍ مطبوع. تحدَّث طه حسين عن الملك الذي حنا عليه، وعلى ولدَيه ... وتحدثتُ عن الملاك الذي فارقنا — إخوتي وأنا — ونحن صغار، وأسرفتُ في اختيار الكلمات التي تُبِين عن الافتقاد والحب، مستعينًا — أعترف — بعباراتٍ كاملة لطه حسين والحكيم والزيات والمازني وعبد الحليم عبد الله والسحار وغيرهم من كبار الأدباء في تلك الفترة.

الدرس الأهم الذي خرجت به من قراءتي للأيام، أن الإعاقة في الذهن وليس في الجسد. لقد تحدى طه حسين إعاقته، واستطاع — كما روى لنا في الأجزاء الثلاثة من الأيام — أن يُصبح أحد الرموز الثقافية، ليس على مستوى مصر فحسب، ولا على مستوى العالم العربي وحده، وإنما على مستوى العالم كله.

كان أهم ما يميز شهر رمضان، السهرات الدينية التي تقام — على نفقة الملك فاروق — في حديقة سراي رأس التين، قوامها تلاوة من القرآن الكريم لقارئ القصر الملكي — هذا هو اللقب الذي أطلقه الملك عليه — الشيخ مصطفى إسماعيل.

لا أذكر أن أبي صحِبَنا إلى حديقة السراي. كنا نُرافق أمهاتنا، ونجلس داخل الحدوة الهائلة، يطوف علينا خدَم السراي بالمشروبات، وتُحيط بنا الأضواء من كل الجوانب، ويتناهى صوت الشيخ مصطفى إسماعيل بأدائه الجميل (هو الثالث، في تقديري، من أصحاب الأصوات السماوية بعد محمد رفعت وأبو العينين شعيشع).

نعود إلى شارع إسماعيل صبري، أُسر متجاورة من بيتنا والبيوت المتجاورة، أُمَّهات وأطفال، نسير على رصيف الكورنيش إلى تقاطع إسماعيل صبري، فتمضي كل أسرةٍ إلى بيتها.

كانت تلك الرحلة القصيرة — نسبيًّا — من رأس التين إلى إسماعيل صبري أَمْيَز ما في السهرة جميعًا، نمارس ما يحلو لنا من ألعاب وسط زحام المارة والقعود، لا نعبأ بأوامر الأمهات وشخطاتهن. أذكر أن إحدى الأمهات ثارت على شقاوة طفلِها، صاحت مُستنكرة: شفتي الولد! الْتقط صِبية الأنفوشي التعبير، حوَّلوه — حالًا — إلى كلماتٍ مُغنَّاة قوامها قول الجارة: شفتي الولد ... شفتي!

في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، يعلو صوت مؤذن جامع أبو العباس بالتواحيش، وهي غير التواشيح. مفرداتها التأكيد على الإحساس بالوحشة في انقضاء أيام الشهر الفضيل: لا أوحش الله منك يا رمضان ... لا أوحش الله منك يا شهر الصيام.

يُعد الناس أنفسهم لِما قبل عيد الفطر، وللعيد نفسه. تنشط حركتهم بين البيوت والأفران، وكعك العيد على الرءوس، يُقبلون على شراء المكسرات من شارع اسمه «النقلية»، يفترِش ما يُسمَّى بسوق العيد مساحاتٍ في الأرض الخلاء والساحات، مثل ميدان المساجد، والساحة المقابلة لجامع علي تمراز، ومواضع أخرى في الأنفوشي ورأس التين. يضيف إلى بهجة الليالي مولد المرسي أبو العباس الذي يأتي موعده في نهايات رمضان. الأعلام والبيارق واللافتات وخيام الصوفية وحلقات الذكر والتواشيح والإنشاد الديني ورواية السيرة النبوية وسِيَر الصالحين، والجلوة التي تطوف شوارع المدينة في آخر أيام المولد، تسبقها الشارات والأعلام والدراويش الذين يلجئون إلى أفعال الخوارق، تأكيدًا لمعنى المحو والفناء.

أذكر — كالطيف — ليلة إعداد كعك العيد. كانت أُمي بصحتها، بمعنى أني ربما كنتُ في الخامسة أو السادسة من العمر. كانت تُشرف بنفسها على إعداد الصواني، تحمِلها دهب إلى فرن التمرازية القريب. ثمة نداءات وملاحظات وأنوار عالية، وباب الشقة مفتوح لتسهيل الحركة.

تظل المدينة — والأحياء الشعبية بخاصة — ساهرة ليلة العيد إلى موعد الصلاة. يدس الأطفال ثيابهم الجديدة تحت الوسادات، أو يضعونها إلى جانبهم على الأسرَّة، حتى تعلو التكبيرات. يحرصون في ذهابهم إلى الصلاة على ارتداء الثياب الجديدة، والحصول

على العيدية من كبار الأسرة: الجد والجدة والأب والأم والأعمام والأخوال. يُحاكون الكبار في أدائهم للصلاة، ينتظرون — كما ينتظر الكبار — حتى ينتهي إمام الجامع من الخطبة.

تحلُّ بداية الاحتفال بالعيد — عند الأطفال — حين يتركون آباءهم، ويتَّجهون إلى ميدان سوق العيد، على ناصيته سيارات أجرة، مقابل ركوبها خمسة مليمات (لا يعرفها جيل الأطفال الحالي). تستوعب السيارة ما لا سبيل إلى حصره. تتداخل الأجساد والأيدي والأقدام بما لا يكاد يُتيح فرصة لالتقاط الأنفاس، ولا رؤية أي شيء. لكن سعادة المغامرة تلفُّ الجميع.

تنطلِق السيارة في شوارع غير مرئية، انعدام الرؤية لا يُتيح التعرُّف إلى ما يمكن رؤيته. يشعر الأطفال من رائحة البحر أنهم يسيرون بالقُرب منه. إذا قال السائق: وصلنا السراي ... عرفوا أنه قد وصل إلى نهاية النزهة أمام قصر رأس التين. يبدأ رحلة العودة دون أن يُغادر الأطفال أماكنهم. مجرد إعادة الترتيب ستُفضي إلى نتائج سلبية، في مُقدمتها أن البعض لن يعثر على الموضع الذي كان يشغله داخل السيارة. يُهمل السائق صراخ المُعاناة من كتمة النفس. يواصل السير حتى يصل إلى نقطة البداية. يندلِق الأطفال من السيارة (هذا هو التعبير الأدق!) إلى أرض الطريق، لا يدرون كيف احتوتهم هذه العلبة الحديدية!

ما يكاد السائق يعلن عن بداية الرحلة التالية، حتى ينسي الجميع معاناتهم، يتسابقون إلى دفع المليمات الخمسة، ويندفعون داخل السيارة، تنحشر الأجساد والأيدي والأقدام، تأهبًا لرحلة تتزاوج فيها اللذة والألم.

فرض اختفاء الساحات والأراضي الخلاء والزحام غياب كل هذه المظاهر التي حدثتُك عنها. نحن نحتفظ بها في نفوسنا، وإن صحبنا أبناءنا إلى المُتاح من الحدائق العامة، بالإضافة إلى الفسحة الأجمل على شاطئ الكورنيش.

زمان، كانت المسافة بين سراي رأس التين وسراي المُنتزة ساحة للألعاب والمسابقات التي تستمر طيلة أشهر الصيف، تجتذب أبناء الإسكندرية، بالإضافة إلى زائريها من المُصيفين.

كان سباق البنز يُقام كل اثنين، عشرات من عربات البنز يقودها أصحابها من رأس التين إلى المنتزة. كالعادة يبدأ السباق بمئات العربات، تتقلص تدريجيًّا، فيصل إلى نقطة النهاية مالا يُجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، والناس — على الجانبين — يُهللون، ويشجعون.

وكانت المينا الشرقية تشهد سباق القوارب بين صيادي رأس التين وصيادي السيالة، ما بين قلعة قايتباي ولسان السلسلة. تنزل الفلايك بالأعلام والرايات الملونة والمزامير والدفوف والطبول، تنطلِق وسط عبارات التشجيع والتصفيق والكلمات التي لُحِّنت خصوصًا لهذه المناسبة.

يُردِّد أبناء السيالة: قفة ملح وقفة طين ... على دماغ رأس التين.

ويُردِّد أبناء رأس التين: سيالة يا سيالة ... ياللي ما فيكي رجالة!

وعلى امتداد الشاطئ، تتعالى الصيحات والدعوات التي تنتصر لكل فريق، ويفوز أحد الفريقين، فتُطوى الأعلام، وتصمت الموسيقى، ويعود الجميع — متسابقين ومشجِّعين — إلى بيوتهم مُحمَّلِين بالذكريات الجميلة، وبوعدٍ على اللقاء في مسابقةٍ تالية، قريبة.

أما مسابقات السباحة، فقد كانت تُجرى من آخر نقطة في يسار الأنفوشي إلى لسان السلسلة، يشارك فيها مشهورون ومجهولون.

وفي الساحات الخالية في شارع التتويج (محمد كريم)، وبالقُرب من حلقة السمك، وأمام سراي رأس التين، كانت تُقام مباريات الكرة.

رأيت — في طفولتي — لاعبي الخمسينيات من الأهلي والزمالك والترسانة، الكراسي تُحيط بالساحة، الكرسي بقرشَين. عرفت أن الإيراد يُنفِق منه اللاعبون على مصاريفهم الشخصية أثناء الإجازة. وكما نعرف، فقد كانت كرة القدم آنذاك هواية خالصة، حدَّثَنا الضظوي — في وسائل الإعلام — عن قطعة الجاتوه بقرش صاغ التي كان يظفر بها مَن يُحرز هدفًا!

بالطبع فإن الكثير مما كان يشهده الساحل، سواء داخل البحر، أو على الشاطئ، لم يعُد يسهل إقامته في ظروف الزحام الحالية.

تحول الحنطور إلى وسيلة نقل سياحية، يستقلُّه المُصيفون أو البحارة الأجانب، للفرجة على معالِم المدينة. أغلب سيره — كما أرى — في طريق الكورنيش، ما بين قصر رأس التين وقصر المُنتزة، عزيز قوم ذل، فلا يُلاحقه الأولاد بعبارات السخرية والشتم والصفات المعيبة. ذلك ما كان يُغضب الحوذية زمن طفولتي، يردون على العبارات القاسية والسخيفة بعباراتٍ أشد، أو يلجئون إلى الكرباج إن أفلح في بلوغ مصدر الصوت.

كان موقف عربات الحنطور على ناصية شارع إسماعيل صبري من ناحية شارع التتويج (شارع محمد كريم الآن). أعرض على الحوذي طلب جدتي بأن ينقلها إل محطة

الأوتوبيس في ميدان محمد علي، أو محطة السكة الحديد، تُحدِّد لي جدتي السعر الذي أوافق عليه، تُحذرني من قبوله إلا بعد أن أساوم بأسعارٍ أقل، مقابلًا للسعر المُرتفع الذي سيعرضه الحوذي. سقف الموافقة هو المبلغ الذي حددتْه جدتي، أو أعود إلى البيت لعرض الأمر.

وكان الحنطور وسيلة احتفال بالعيدَين، إلى جانب سيارة التاكسي التي اعتدنا ركوبها — كما رويت لك — في زحام عشوائي. اختفى الحنطور من شوارع الإسكندرية وحاراتها، بل وأزقتها. تم الأمر في مدى أعوام طويلة كتأثيرات الزمن، وإن ظلَّت أعوام وجوده — كوسيلة نقل مهمة — ماثلة في الذهن.

تأثيرات الزمن تفرض ملامح جديدة، تُغَيِّب من حياتنا ما ألفنا وجوده كثوابت يصعب تصور افتقادها، اختفت الذكريات الحميمة، حل مكانها ما بدا لي مفاجأة خالصة. لم يعُد من الزمن القديم إلا الجوامع الكبرى، والزوايا، وما تبقى من البنايات القديمة، أنشئت العمارات الجديدة المُتعددة الطوابق، وعلت الإعلانات المضيئة، ومحال البضائع الحديثة. حديقة سراي رأس التين في اتساعها القديم، لكن لم يعُد في وسع أهل بحري أن يتردَّدوا عليها، أُقيمت أمامها متاريس تمنع الدخول. أفهم — وأتفهَّم — عملية إزالة البنايات المحيطة بالبيت الحرام، والبنايات التي أتاحت توسيع ميدان الحسين بالقاهرة، لكن من الصعب أن أتصوَّر إنشاء كتلةٍ خرسانية تحتلُّ المساحة الأكبر من ميدان أبي العباس بدعوى توسيع الميدان. أثق أن الإغراءات المادية كانت هي الباعث لِما حدث، وأثق — في الوقت نفسه — أن قرارًا حاسمًا تُصدره الجهة المسئولة، سيكفُل إعادة الميدان إلى صورته الأولى. قلَّت مساحات الشوارع المُبلطة بالبازلت، مقابلًا لزيادة المساحات المُسفلتة. اعتدت — في صباي — أن أتقافز فوق المكعبات البازلتية، وأعدَّها، حتى يُنبهني — فأفسح الطريق — هتافُ حوذي، أو قرقعة عجلات عربة كارو، أو كلاكس سيارة. في زياراتي إلى مدن ساحلية، بدت لي الطرق البازلتية ملمحًا مُهمًّا في شخصيتها، وكانت هي الملمح المُهم في شخصية الإسكندرية، لكنها ذوت، واقتصرت على بعض الشوارع الجانبية، والضيقة. حتى الحديقة المواجهة لمستشفى المكلة نازلي، عُطِّلت نافورتها، وغطَّى التراب أرضيتها التي كانت خضراء. غاب رونقها القديم. أما البوصة التي يتدلَّى منها خيط النايلون والسنارة. يجلس الصياد على المكعبات الأسمنتية، أو يقف فوقها. يقذف السنارة الحاملة لطعم الجمبري الصغير، يتشبَّث بالصبر حتى تحدُث الجذبة، فتعلو يده بالصيد الذي طال ترقُّبه. هذه الصورة شحبت، أو تلاشت. اشتريتُ أدوات صيد السنارة في

أحيانٍ كثيرة، وشاركتُ الصيادين وقفَتَهم، وعدتُ إلى البيت وفي «الغلق» من آحاد المرجان والبربوني ما يحضُّ على التباهي. السنارة القديمة اختفت، حلَّت — بدلًا منها — ماكينات حديثة جيدة الأداء. لم تكن الثلاجة الكهربائية قد دخلت بعدُ معظم بيوت بحري. لذلك كان رواج تجارة عم أحمد في ألواح الثلج واضحة، يتوالى قدوم عربات النقل المُغلقة، يفتح بابها الخلفي على رصات الثلج، تستقر داخل الصندوق الخشبي الأخضر، ما يزيد يُرَصُّ في مدخل البيت المجاور، ساعة أو أقل — في الصيف بخاصة — ينفد كل ما حملته العربة، لتأتي عربة ثانية، وهكذا. مطعم الطنطاوي ما زال في مكانه، وإن بدَّل نشاطه. لم يعُد يقتصر على الفول والفلافل، لكنه أضاف إليهما وجبات خضار ساخنة، تغيرت نوعيات الزبائن نتيجة لتغيُّر الطلبات. سينما التتويج — في المواجهة — تحولت إلى جراج، ثم أُزيل لتُقام — في موضعه — بناية سكنية، ذات طوابق مُتعددة.

آخِر من كنتُ أعرف بشارع إسماعيل صبري، الأسطى إبراهيم شعبان، صاحب دكان الترزي أسفل بيتنا. كنتُ أحرص — في زياراتي إلى الشارع — أن أسأله عن الأحوال: كيف كان الزمن القديم، ومن بقي منه، وماذا عن الجديد؟ وكان يصبر على أسئلتي التي تُذكِّره بأسماء نسِيها هو نفسه.

طالعني دكان إبراهيم شعبان — في زيارةٍ أخيرة — بالإغلاق. عرفتُ أنه قد أصيب بشللٍ مفاجئ، فحمله الجيران (الجيرة لها معناها الجميل في الأحياء القديمة) إلى المستشفى، أقام فيها أيامًا، ثم عاد إلى بيتِه في وضعه المُرضي، أرقدوه على فراشه، فلم يعُد يُغادره.

إبراهيم شعبان هو آخِر الخيوط التي كانت تربطني بشارع إسماعيل صبري الذي أعرفه، تحُوطني الغربة بالنظرات المُتسائلة، والسِّحَن التي لم يسبِق لي رؤيتها، والمحال التي تُقدِّم أنشطة فرضها إيقاع العصر، كالموبايل والأجهزة الكهربائية ووجبات الطعام السريعة.

من عادتي — كما قلتُ لك — أن أعود إلى بحري، وما تزال ذاكرتي تستعيدُ شخصياته وأحداثه، حتى التي مضى على غيابها أعوام طويلة.

أحيانًا، فإني أنفي ما شاهدته، أستعيد ما عشتُه من المواضع القديمة، ما تعرَّض للإزالة والتقويض والتدمير، لتحلَّ — بدلًا منه — مواضع جديدة: شوارع وميادين وبنايات. تلك هي حيلتي للعيش في زمن الطفولة والصبا، الزمن الذي تدين له ذاكرتي بما تعرفتُ إليه — وحاولت التعبير عنه — من شخصياتٍ ووقائع.

بحري هو نبض الكثير مما كتبت، وأثق — لو أسعفني العمر — أنه سيكون نبضًا لأعمالٍ أخرى تالية.

أُصارحك بأن الحزن يلفُّني عندما أزور الإسكندرية، حي بحري بالذات، هذه الأيام. تغيرت الصورة تمامًا، فأنا أفضل أن أعتمد على صور الذاكرة.

أفلح الانفتاح في أن ينفذ — بمظاهره السيئة — إلى المَوطن الذي نشأت فيه، وأحببته. بحري الذي عشت فيه يختلف عن ذلك المبنى الخرساني الهائل الذي احتل ميدان أبي العباس، فذوت الروحانية وحميمية البشر، تعرضت العمارة الجميلة لجامع أبو العباس، وفي الجانبين جامع البوصيري وياقوت العرش، إلى عملية تشويه متعمدة، بالسطو على مساحة الميدان، وإقامة هذه الكتلة الخرسانية الهائلة موضعها، تشغلها المولات والمطاعم ودكاكين البازار. أفتقد الحديقة الهائلة أمام سراي رأس التين تُتيح خضرتها للجميع، ويُتلى فيها القرآن في ليالي رمضان. شاطئ الأنفوشي احتلته الكبائن وورش المراكب، فضاعت فُرَص أبناء الحي في الإفادة من البحر الذي وُلدوا على شاطئه ... الكثير من الصور التي أحببتُها، وعبرت عنها — فنيًّا — في أعمالي، مقابلًا للكثير من الصور التي لا تعدو تشوُّهات في الجسد الجميل.

حي الجمالية بعمارته الإسلامية وشوارعه الضيقة وأقبيتِه ومساجده وزواياه وحرفِيِّيه، هو التعبير عن القاهرة المُعِزية بكل زخمها التاريخي والمعماري والإنساني. ذلك ما يصدق — إلى حدٍّ كبير — على حي بحري، وإن انتسب الكثير من أبنائه إلى المِهن المتصلة بركوب البحر.

وإذا كانت وزارة الثقافة تُحاول إنقاذ الجمالية من الزحف الخرساني، فلعلَّ ذلك ما يحتاج إليه بحري، لا أقصد البيوت القديمة المُتهالكة، فلا بد أن تمتدَّ إليها يد الإنقاذ وفق أسس معمارية محددة، وإنما أقصد المعالِم المعمارية والتاريخية المهمة.

لتكن البداية — على سبيل المثال — بإزالة تلك الكتلة الخرسانية الهائلة من ميدان أبي العباس، مقابلًا لما حدث في ميدان الحسين، فيعود إلى الميدان ما سُلب منه، وما أَلِفه من ملامح مُتفردة، يفتقِدها أهل الإسكندرية وزوَّارها!

غير الزمن طبيعة المكان، الكثير من الأشياء غابت ملامحها، أو تداخلت في ملامح أخرى جديدة. ليس هذا هو بحري الذي عشتُ فيه طفولتي وصباي وسنين من شبابي، الفضاءات التي صارت — فيما بعد — محورًا لكتاباتي، كل الصور في ذاكرتي ثبتت على

مشاهد مُحددة. تغلِبني الحيرة وأنا أحاول الكتابة، وأنا أحاول استعادة الملامح والقسمات، ما بين المشاهد الآنية وتوصيف الذاكرة، ما أزاله الهدم، والجديد الذي بدَّل طبيعة المكان. كما رويت لك، فإني أغمض العينَين أحيانًا (لي قصة اسمها «إغماض العين») وأحاول استعادة ما كان.

غواية الإسكندر وتسونامي الدلتا

لم يكن بحث الراوي عن قبر الإسكندر، في روايتي «غواية الإسكندر»، بهدف العثور على القبر لقيمتِه التاريخية أو الأثرية، أو العثور على الكنز الذي قِيل إنه أودع في القبر، لكنه أراد أن يجد الطلسم الذي طلب الإسكندر أن يُوضَع ضمن المُتعلقات المودعة مع جثمانه، وهو طلسم يمنع اعتداء البحر على المدينة، ويحمي الإسكندرية من الغرق. ذلك ما توصلَتْ إليه أبحاث الراوي — وهو أستاذ جامعي — فانشغل بالقراءة والبحث والتنقيب، يُحاول أن يمنع تهدُّد الإسكندرية بالمصير القاسي.

لم يفقد الأستاذ الجامعي وليد صبحي إيمانه أنه سيعثر على القبر، الكنز، الطلسم، لينقذ الإسكندرية من الخطر الذي يتهدَّدها.

والحق أن بحث وليد لم يكن في الفراغ، ولا هي شطحات عالِم، فالحقائق العلمية — تؤيدها ظواهر بيئية ومناخية — تخشى ارتفاع منسوب مياه البحر في الأعوام القادمة (حدَّدها العلماء بما لا يزيد عن ٢٠ عامًا!) بحيث تبتلع الأرض مساحات هائلة من الدلتا. بل إن بعض التقديرات تتوقَّع غرق ثلث الدلتا، خلال الأعوام المائة القادمة، بعد أن يرتفع منسوب مياه البحر المتوسط مترَين.

ما معنى الانبعاث الحراري؟

إنه زيادة درجة حرارة الأرض، نتيجة انبعاث الغازات الضارة التي استقرت في الغلاف الجوي، وتعمل كسطحٍ عاكس لأشعة الشمس المُرتدة من الأرض، فتمتصُّ جزءًا منها، وتؤدي إلى ظاهرة التسخين، وارتفاع درجة الحرارة.

غاز ثاني أوكسيد الكربون الناتج عن الأنشطة البشرية في إحراق الفحم والبترول الذي نَستخدمه في المصانع والسيارات، ومحطات توليد الطاقة، وغيرها ... هذا الغاز هو أهم الغازات المعروفة باسم غازات الاحتباس الحراري.

والحق أن تأثيرات التغيُّر المناخي أخطر من مجرد ابتلاع مياه البحر لجزر وسواحل ومدن وبلاد — ربما — بأكملِها. تمتدُّ التأثيرات فتشمل فقْد الكثير من دلتا الأنهار، وكثرة الفيضانات، والأعاصير المُدمرة، والجفاف، والاختلاف في توزيع أحزمة المطر إلى حدِّ التوقُّع بأن تنخفض إيرادات مياه النيل، نتيجةً لتغيُّر حزام الأمطار فوق حوض النهر. ونقص الإنتاج العالمي من الحبوب والإنتاج الحيواني، وانتشار الأوبئة، وموت ما لا حصر له من الكائنات الحية في أعماق الأنهار والبحار والمُحيطات، واختفاء العديد من الجزر، وتآكُل الشواطئ، فضلًا عن فقدها. بل إن الآثار السلبية قد تبلُغ حدَّ تحول الشعاب المرجانية بالبحر الأحمر إلى البياض، مما يُفقدها جاذبيتها السياحية.

من الأخطار الماثِلة كذلك، ما أعلنه وزير البيئة الإندونيسي من أن ارتفاع حرارة الأرض يُهدِّد بالغرق ألفَي جزيرة من جُزر الأرخبيل الإندونيسي قبل عام ٢٠٣٠. وزاد رئيس جمهورية جزر المالديف فأعلن أن الجُزر التي تتكون منها بلاده، قد تختفي تمامًا خلال قرنَين من الزمان بتأثير تغيُّرات المناخ.

التغيُّر المناخي إذن مَبعثه ظاهرة الاحتباس الحراري، وما يستتبعها من ذوبان طبقات الثلوج بالمناطق المُتجمدة، وارتفاع منسوب مياه البحر، بحيث تغرق الكثير من الجُزر والأراضي الساحلية، حتى إن مساحاتٍ كبيرة من الدلتا — في تقديرات العلماء — مُهدَّدة بالغرَق خلال العقود الأولى من هذا القرن.

إن درجة حرارة الأرض قد ترتفع ما بين ٣ إلى ٤ درجات في العقود القريبة القادمة، والأخطار المتوقَّعة — نتيجة لذلك — هي تراجع مخزون مياه الشرب، وزيادة الأعاصير والنوات والكوارث. أما أخطر النتائج فهي تعرُّض دلتا النيل للغرق، فضلًا عن ارتفاع مستوى ملوحة المياه في النهر، والقحط، ونشوء ظاهرة اللاجئين بسبب تغيُّر المناخ.

لقد قسمتِ الأبحاثُ العلمية شواطئ الدلتا إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: شواطئ مُعرضة للخطر، بتأثير انخفاض منسوبها عن سطح البحر، ومنها ساحل بُحيرة المنزلة، ومنطقة الطرح جنوبي الإسكندرية. أما القسم الثاني — ويضمُّ الشواطئ الآمنة — فهو الشواطئ المحمية طبيعيًّا بالكثبان الرملية ما بين البرلس وبلطيم وجمصة. وأما القسم الثالث، فيشمل الشواطئ التي ترتفع ما بين ٢ إلى ٦ أمتار فوق سطح البحر، كما في رشيد وبلطيم ودمياط.

ولا شك أن ارتفاع مستوى البحر سيؤدِّي — على المدى المتوسط والبعيد — إلى تعرض مساحات متفاوتة من دلتا النيل لاحتمالات الغرق، وما يستتبع ذلك — بالطبع — من فقد مساحاتٍ ضخمة من الأراضي الزراعية والبنايات والمنشآت الصناعية والسياحية، وهجرة الملايين من السكان — في ظروفٍ قاسية للغاية — إلى الجنوب.

توقعات العلماء أن البحر — حتى عام ٢١٠٠م — (في مدى النظر) سيلتهم ١٥٪ من أراضي الدلتا التي تضم بحيرات إدكو والبرلس والمنزلة والبردويل وجنوب الإسكندرية وشمال محافظات كفر الشيخ ودمياط والدقهلية وبور سعيد والسويس، بالإضافة إلى إهدار حوالي مليون فدان من أجود أراضي الدلتا الزراعية، وتعرُّض أجزاء واسعة منها للملوحة والتصحُّر.

حتي أراضي الدلتا التي قد تنجو من الغرق، مُهددة بتسرُّب مياه البحر مما يؤدي إلى تملُّحها، وعدم صلاحيتها للزراعة بالتالي. بل إن التوقعات تُشير إلى احتمال أن يفقد نهر النيل ما بين ٣٠ إلى ٦٠٪ من موارده المادية، وهو ما يَعني خطرًا يصعب تصوُّر نتائجه.

لكي يظلَّ البحر على منسوبه، أو يقل، فثمة اقتراحات بإغلاق البحر المتوسط عن طريق جبل طارق، وإغلاق البحر الأحمر من خلال مضيق باب المندب. وقد ظلَّ الاقتراح بإقامة سدٍّ على مضيق جبل طارق قائمًا منذ عام ١٩٢٠م حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فغاب الاقتراح في تطورات الأحداث، وبعد نشوء ظاهرة الاحتباس الحراري، أُثير الاقتراح ثانية بواسطة علماء مصريين وسويديين، لكن الاقتراح لم يجاوز — حتى الآن — إطار الأمنية!

إذا كان الدكتور وليد صبحي — في غواية الإسكندر — قد واجه السخرية والاستخفاف، حتى من اللصيقين به، فإن اللامبالاة — وهي أخطر — تواجه التحذيرات المُتوالية من اقتراب خطر ابتلاع البحر للإسكندرية، ومساحات هائلة من الأرض المصرية. ولعلَّنا نذكر تحذير مسئولة دولية، هي وزيرة خارجية بريطانيا السابقة «بكيت» (مايو ٢٠٠٧) من غرق الدلتا، وتشريد الملايين من سكانها، نتيجة تغيُّر المناخ، وارتفاع منسوب المياه. والطريف — والمؤسف — أن صحفنا نشرت التحذير المنسوب إلى الوزيرة البريطانية، دون أن تُعنى حتى بالتعليق عليه.

آلاف الأطنان من الكُتَل الخرسانية، أُلقيت داخل البحر، أسفل الكورنيش الحجري، ما بين المنتزه ورأس التين، بالإضافة إلى تغذية الساحل نفسه بكمياتٍ هائلة من الرمال.

الهدف المُعلن هو حماية الشواطئ من تأثيرات الأمواج — حاليًّا، وفي المستقبل — لكن النتائج أتت بعكس المأمول. ظلت ثورة البحر — في أوقات النوات — تهب بتأثيراتها السلبية، بحيث فرض السؤال نفسه: ماذا لو واصل المناخ تغيُّراته، وفي مُقدمتها زيادة منسوب مياه البحر؟

لاحظ خبراء علوم البحار وبحوث الشواطئ — وهم غير مُهندسي الإنشاءات الذين وجدوا في كُتَل الخرسانة وحقن الرمال ما ينهي المشكلة — أنَّ المصدَّات والرمال فشلت في أداء دورها كحاجزٍ يحمي المدينة من تقلبات البحر، بالإضافة إلى أن تلك «الحواجز» قد أُعِدت دون دراسة، أو استشارة علمية حقيقية، فأدَّت إلى تغيُّر بيئي سلبي، قد ينتهي — إن استمر — باغتيال شواطئ الإسكندرية ... والكلام للخبراء!

المشكلة الأكثر خطورة — هذا هو التعبير الذي يَحضرني — هي توقعات المستقبل، ارتفاع منسوب البحر بالقياس إلى مستوى الأرض.

وعلى الرغم من الرأي العلمي الذي يذهب إلى أن غرق الإسكندرية من قبل، يعود إلى هبوط الأرض، وليس إلى ارتفاع مستوى سطح البحر، فالخطر المتوقَّع إذن يختلف عما واجهتْه المدينة من قبل ... على الرغم من ذلك الرأي، فإن الأسئلة تظلُّ قائمة: كيف نمنع الكارثة؟ كيف نحول دون اندثار الإسكندرية الثالثة، بعد أن اندثرت المدينة مرتَين من قبل؟ كيف تظلُّ الإسكندرية الثالثة على حالها، فلا تُواجِه خطر التلاشي؟!

ثمة من يرى أن إنشاء سواتر حماية على طول شواطئ الإسكندرية، دون دراسات بيئية، ينطوي على أخطار تُلغي المتوقَّع من الفوائد، المواد الأسمنتية المستخدمة في عمليات البناء لا تصلح. الأجدى أن نُنشئ حواجز غاطسة، أو مصنوعة من البلاستيك، بحيث تنكسِر حدة الموج تحت سطح البحر، ويعجز القاع — عند تحركه — من اقتحام الشاطئ، والمدينة بالتالي. أضافت الدراسة أن طابع النَّحر يختلف من مكانٍ إلى آخر، ولا بد من دراسة الأثر البيئي لها، والظروف الطبيعية للبحر، كي لا تُهدر الإمكانات والموارد.

يذهب هذا الرأي إلى أن الكُتل الخرسانية لا تُحقق نتائج إيجابية مطلقة، إنما تداخلها نتائج سلبية، أهمُّها تغيير نوعية المياه، وفي فصل الصيف بخاصة، والأجدى إعادة تغذية الشواطئ بالرمال، سواء باستخراجها من قاع البحر، أو بنقلها من مكانٍ آخر، ولكن بمواصفات خاصة.

باختصار، فإنه من الصعب أن تتحمل الخطر المرتقب حواجز الأمواج الحالية، وعلى المدي البعيد — وربما القريب — فإنها لن تُحدث تأثيرًا إيجابيًّا من أي نوع.

لقد تأجلَّت كل مشروعات الحماية والإنقاذ لعقدة مصرية قديمة، هي اختلاف وجهات النظر. ثمة لجان تابعة لوزارة الري، ووزارة الري والموارد المائية، ومحافظ الإسكندرية، وهيئة حماية الشواطئ، ومعهد علوم البحار، وأقسام الجيولوجيا والجيوفيزياء بالجامعات المصرية، وجمعية المهندسين، والجمعية المصرية للتخطيط العمراني، والمركز القومي للبحوث، ومعهد أبحاث البناء، وهيئة الاستشعار عن بعد، وهيئة الأرصاد الجوية والتغيرات المناخية، مدينة مبارك العلمية بالإسكندرية، مصلحة المساحة، هيئة الجيولوجيا المصرية، وغيرها. عبَّرت كل منها عن وجهة نظرٍ مخالفة للأخرى. وكان القرار السهل هو التوقف عن تنفيذ أي مشروع لحين التوصل إلى كلمة سواء. وبالطبع فإن الثمن يدفعه مستقبل الإسكندرية، بالأخطار التي تهدده (أذكر أنِّي أَلِفتُ — لأعوام طويلة — صرف المجاري في الميناء الشرقي. لم تكن هناك اعتراضات ولا تحذيرات، فاعتبرتُ الأمر عاديًّا، ولم يكن في بالي — أُصارحك — تخوُّفات من التلوث البيئي، فما يحدُث في البحر يحدث في النهر أيضًا ... وهكذا نحيا!)

تكوَّنَ العديد من اللجان لدراسة سُبل إنقاذ شواطئ الإسكندرية — والمدينة جميعًا — من الخطر. ووصف العلماء ما أنفق على عمليات الإنقاذ بواسطة تلك اللجان، بأنه حلقات في سلسلة تحويل شواطئ الإسكندرية إلى حقول تجارب، وطالب العلماء ببدائل أكثر جدوى.

كانت التغذية بالرمال، أو الحقن بالرمال — كما أشرنا — في مقدمة الحلول التي لجأتْ إليها اللجان، لكن الرمال ذابت في أمواج البحر بعد أيامٍ قليلة، وذابت بالتالي بضعة ملايين من الجنيهات أنفقت لتنفيذ ذلك الحل. وأقيمت حواجز خرسانية في الأماكن الأكثر عرضةً لاقتحام الأمواج، لكن الأمواج علَتِ الحواجز، وتخطَّتها إلى قلب الطريق، بما يَعنيه ذلك من نُذر الخطر. ثم بدأ العمل في الحواجز الغاطسة التي وصفَها الخبراء بأنها أحدث الوسائل العلمية التي استخدمتها الدول المُتقدمة.

وثمة حلٌّ بإقامة سد، ارتفاعه متران، وبطول ٦٠٠ كيلو متر، وهي المسافة ما بين مصبَّي رشيد ودمياط (المتوقَّع أن يعلو مد البحر حوالي المتر)، وأيًّا تكن المبالغ التي تُنفق على هذا السد، فإنها ستظلُّ هامشًا بالقياس إلى الخسارة الفادحة التي سيؤدي إليها غرق الدلتا. وثمة حلول أخرى، منها عدم إقامة طوابق أرضية في البنايات الجديدة، وإلغاء تلك الطوابق في البنايات القائمة بالفعل!

عمومًا فإن حماية الشواطئ لا تأتي بمجرد وضع السدود، وتعلية الأرض في مواجهة البحر. الحل يجب أن يرتبط بدراساتٍ علمية، تضع في اعتبارها العوامل الساحلية من تيارات وأمواج وحركة رسوبيات ومسح الشواطئ التي كانت قائمة قبل تنفيذ مشروعات الحماية.

وللأسف — والكلام للعلماء — فقد أدي التخبُّط في مشروعات لم تُدرَس جيدًا، إلى فقدان ٥٠٪ من شواطئ الإسكندرية، بما تحويه من خصائص جيموفولوجية. والثابت علميًّا أن منسوب المياه في الميناء الشرقي — في الأعوام الأخيرة — زاد من مترٍ واحد إلى ثلاثة أمتار. بل إن بعض الاجتهادات المُتشائمة تخشى من أن يأتي يوم — قبل التسونامي المتوسطي — يرى أبناء الإسكندرية قلعة قايتباي في قلب البحر.

ما تحتاج إليه الإسكندرية، والدلتا جميعًا — فلا تُواجه خطر الغرق والموت والاندثار — هو دراسة كل الشواطئ على ساحل الدلتا، وليس شاطئٍ بالذات، أو بضعة شواطئ. ولعلَّنا نُشير إلى إنشاء العديد من القرى السياحية، في الساحل الشمالي، حواجز أمواج لحمايتها، وهو ما أدى إلى انتقال خطر التيارات البحرية إلى مناطق أخرى، ودمَّر القرى الواقعة فيها، بل إن تغذية الميناء الشرقي بالرمال أعاق الحركة في الميناء نتيجة تآكُل الحجر الجيري، وترسُّب الرمال.

هنداوي